الفصل الثاني
الإدراك الروحي في رسائل النور

- المنهج الروحي في إدراك العمق الإيماني في "رسائل النور"
- الزمن الروحي في فكر "النورسي"
- الجمال والخلود في "رسائل النور"
- حاشاك حاشاك يا ربُّ حاشاك..!
- البعد الكوني في أخلاقيات "رسائل النور"
- على مشارف النفس في المثنوي العربي النوري
- أدب الإيمان
- زاد الغرباء

المنهج الروحي في إدراك العمق الإيماني في "رسائل النور"

١

قَلَّما أجرؤ على الدخول إلى عالم النورسي الفكري والروحي في "رسائل النور" قبل أن أستجمع أجزاء نفسي، وأحفز ذهني، وأُرهف حِسَّي، وأستنهض قوى روحي، وأستحضر قلبي.. وإلاّ غُلِّقت الأبواب من دوني، وقيل -معاذ الله-: "هيهات أن تطيق التَّسامي إلى تلك القِمم الرفيعة، أو تقوى على توقل فجاج الأفكار. أو تطال المنابع والأصول، وربما عُدْتَ صِفرَ اليدين ولم تحظَ بطائل".

ولعلَّ هذا هو سِرَّ انكباب "طلبة النور" على الرسائل في أدبار الصلوات المكتوبة، حيث لم يزل حضورهم القلبي على أشُدّه، واستجماعهم لأنفسهم لم يزل قائمًا لم يتبدَّد بَعْدُ.

فحِدَّة الذهن، وسعة التخيّل، ويقظة البديهة، وحضور القلب، مقدّمات لا بُدَّ منها بين يدي "الرسائل" لكونها فكرًا إبداعيًّا حافزيًّا لم يسبقه تمهيد أو توطئة، فيصدم الذهن بشكل حادّ، ويهزّ أوتار القلب المسترخية، ويَرُجُّ أمواج الروح الساكنة، ويرفع القارئ فجأةً وعلى حين غِرَّة من مشاغل يومه، واهتمامات أَمْسِه وغَدِه، إلى مسائل الأبدية التي تتجاوز أعمار الأكوان وأعمار الأجيال.. وهو أمرٌ عظيم لا يقدر على معالجته إلاَّ

فكر عظيم، كما لا يقوى على استقباله واستيعابه إلاّ ذهن منفتح، وروح متحفز، ونفس مشتعلة، ووجدان مشرق، وبديهة فطنة، وضمير ذكي.

ويكفي أن نعلم أنَّ "الرسائل" إنَّما هي "صدى صوت القرآن".. فهي مكتوبة من ضياء قلب صاحبها وعقله.. فقارئها لا تخطئه من خلال سطورها نفحات القرآن ولمعاته وسانحاته ورشحاته ونضحاته.[٧١]

ولأنه "صدى القرآن"، فهذا يعني أنه صدى صوت الوجود الذي لا يشيخ ولا يفنى، فينبغي إذن أنْ يستقبل من الروح الإنساني بكل أغواره التي لا تقاس، وبكل آفاقه التي لا تطال.

إنَّ إيقاظ الجانب الإلهي من أنفسنا هو أعظم مهام "الرسائل"... وما من قارئٍ للرسائل إلاّ وهو يشعر وكأنَّ انفجارًا كونيًّا مدويًا يكاد يضيء بريقه جميع أرجاء نفسه لما لا تني تشعل في هذه النفس من فتائل من خلال الانقداحات الذهنية والتحسسية.. وأما المسابر التي تستخدمها في سبر منابع الخلود في مناجم الروح السرمدي، فهي من أعاجيب الرسائل؛ فقد استطاعت أن تجعل القارئ يجد برهان خلوده في نفسه بنفسه، فإنْ لم يجد برهان خلوده في نفسه فإنّه غير واجده بعد ذلك في أي مكان آخر.

٢

إنَّ النورسي واحد من جبابرة "الروح" في هذا العالم بلا مراء.. إنه فرد لا ثاني له في اهتماماته بخلود الإنسان وبمصيره الأخروي.. لقد أوقف نفسه، وأفرغ روحه على جيل كامل كثير التعطش إلى الرواء الروحي، ففجّر أنهار الحياة الأخروية في النفوس، ووقع على كل نفس كما يقع

[٧١] انظر: هذه العناوين في "المثنوي العربي النوري" لبديع الزمان سعيد النورسي.

المطر على السهل الظميء، وأحبَّ النوع الإنساني بكل ذرة من دمه، وأشفق على مصيره، وأسهب في بحث مشكلاته الروحية كما لم يسهب أحدٌ من قبله في هذا القرن.

لقد عاش إيماننا زمنًا طويلاً حياة راكدة بطيئة الفعل والانفعال، حتى كاد نبضه يتوقف وقلبه يتعطل.. فإذا بالنورسي يتداركنا فيسارع إلى شَدِّ أنباضنا بنبض الأبدية، ويُدَوْزن إيقاعنا النفسي والفكري مع إيقاعها في حياتينا الدنيوية والأخروية.

٣

إنَّ الأعمال الفكرية والروحية المسطّرة على صفحات "رسائل النور" إنما هي حصيلة إلهامات مفاجئة قادت النورسي إلى الالتفات إلى هذا النظام الكوني العظيم، فلاحت له نوازع الارتقاء والتكامل في الأشياء من الأدنى إلى الأعلى، وهو سنّة إلهية من سنن الخالق في مخلوقاته.. الأمر الذي جعله يرى في الارتقاءات الإيمانية من درجة أدنى إلى درجة أعلى سنّة إيمانية ينبغي التجاوب معها كتجاوبنا مع سنن الحياة والكون.

إنَّ حياة فكرية وروحية بالغة أعلا درجات التوتر والشدّ ولها من العمق والسعة مثل مالها، لا يمكن قياسها أو النظر إليها من زاوية نظر واحدة محدودة الرؤية.. فالنورسي استثنائي في كل شيء، واستثنائي في كشوفاته لمناطق قصية وغريبة في "النفس البشرية"، حتى إنَّه ليقدِّم نفسه إلى نفسه، ويعرِّف نفسه إلى نفسه، ثم لا يجد ما يمنع من أنْ يقدم نفسه لتفهم عنه نفسه.[٧٢] فقوة الخيال عنده جعلته صاحب رؤى، وصاحب قوة استلامية

[٧٢] انظر: مقدمة "المثنوي العربي النوري" لبديع الزمان سعيد النورسي.

لـ"ما ورائيات هذا العالم"، فساعد الإنسان على معرفته بقدسية نفسه، وعلَّمه كيف يحفز هذه القداسة بتجارب إيمانية رفيعة كي يتحرر من بين فكاك زمانه ومكانه.. فبمثل هذه التجارب الإيمانية يترقى الإنسان، ويعلو على المحدوديات، ويكتشف ضحالة الفكر المحدودي الضيق، وضلالات ما ينضح عنه، وأباطيل ما يفكر به.

٤

إنَّ العظمة والقداسة متلازمتان في كل كتابات النورسي، فلا بُدَّ لقارئ الرسائل من مسحة من القداسة الذهنية تلازمه في استبحاره الفكري والروحي في "الرسائل" لكي يدرك المستويات المثالية التي تدعو إليها هذه الرسائل.

ولأنَّ الإنسان نفسه في مستواه المثالي مخلوق كريم ألمعي الخصال، وَضَّاء الجوهر كما يقول النورسي، لذا فإنَّ مخاطبيه عليهم أن يُسَامِتوا "الإنسان" في مثاليته، وليس من حيث كونه مخلوقًا ظلاميًّا مخيفًا، بل من حيث ما ينطوي عليه من ألمعية، ويتجوهر فيه من وَضَاءَه، فما لم يفتح الكاتب والقارئ أحدهما للآخر أعماق روحه فلن تجدي كتابة الكاتبين، ولا قراءة القارئين كما يعتقد النورسي.

فالصراع الدائر بين "جوّانية الإنسان" و"عالمه الخارجي" يتمثل في الرغبة الملحة على التأكيد على خصوصية "الذات" التي أودعها الله تعالى طوايا الإنسان وطالبه بصونها وبين "ذات العالم" الخارجي الذي يريد التهامه بالكلّية وطحنه في مآلاته.. فغدت الحياة بسبب ذلك حربًا مستمرة من النضال بين الإنسان وعالمه الخارجي. وعلينا ألاَّ نتوهم أنَّ هذه المثالية

الإيمانية التي يخاطبها النورسي في الإنسان ليست من الواقع الإنساني في شيء، بل هي واقع نفسي ولكنه مخفي، فيريد النورسي استثارته وتحفيز قواه لكي يكون مستعدًّا دومًا لمواجهة قوى الأباطيل والكفريات التي تهاجمه من كل جانب، فلا يذهل برعبها عن قوة نفسه، وعظمة ذاته، فيتصدى لها بكل قواه النفسية ويسدُّ في وجهها النوافذ والأبواب.

وفي هذه الأجواء الإيمانية المثالية التي يرسم النورسي ملامحها في رسائله، تتنامى الحواس المرهفة، ويتألق العقل، وتشيع أنفاس الحياة النظيفة، ويصبح العالم في متناول أفكار "المؤمنين" وعظماء نبلاء الفكر الإيماني المتعالي على صغائر الدنيا وترهات أفكارها.

٥

وما لم نستطب الهِزَّة المرجَّة التي يحدثها الرعب من أنفسنا "الأمَّارة بالسوء" ونحن نقرأ النورسي، فقد نفقد قدرتنا على طرد القلق الذي يعذبنا كأنفسٍ ضالَّةٍ تائهةٍ يؤلمها الخوف من المجهول "الماورائي"، ويشيع الرجفة في الأوصال، ويحطم قوائم النفس، ويغرق القلب في الظلام.. إنَّ النورسي يزود عيوننا بمثاقيب قادرة على اختراق الحجب التي تحجبنا عن أغوار نفوسنا لكي نرى أبعد وأعمق، ونشاهد الصراعات المحتدمة في هذه الأغوار بين قوى الامتلاك التي يصارع بعضها بعضًا من أجل امتلاكنا واستلابنا وَجَرِّنا إلى حيث تريد من العلو أو السفول.

٦

إنَّ صراخ القوى النفسية المنسحقة تحت أقدام الصراعات المحتدمة

بين العقول المستعارة من خارج الذات، وبين عقل الأمة الذي لا زال راكنًا في خفايا الأذهان، دفع النورسي لكي يأخذ على عاتقه مهمة استنهاض هذا العقل من جديد، وتجديد ما خلق منه، ورمَّ من حباله، فأتى هذا العقل من جوانبه جميعًا، ما أشكل عليه من المنقول، وما أنكره من المعقول، وما خالطه من ملفوظ ومرفوض.

لقد أدرك النورسي أنَّ الروح الواعية في الإنسان تشمئز من أنشطة الجزء "اللاواعي" منها وتناصبه العداء، وهو أمر مخيف جدًّا.. حتى ليبدو في كثير من التخريبات التي يحدثها في النفس وكأنه عنصر غير بشري ولا إنساني، وأنه شيء همجي تمتد همجيته حتى إلى الروح والمشاعر والذهن.

فكشوفات النورسي العلوية لخارطة النفس البشرية ساهمت إلى حد كبير في مقارباته الفكرية لفهم الإنسان واستيعاب إشكالاته والمسارعة من ثمَّة إلى مدِّ يد العون لإنقاذ الإنسان من هذا الانحلال النفساني الصراعي الذي شغل النورسي في معظم أعماله الفكرية والإيمانية.

وأفضل للإنسان ألفَ مرَّة أن ينتحر عقليًّا وأن يقع فريسة هلاك روحي من أن يظلَّ مستمتعًا بخمود بليد، وعيش سكوني سقيم.. ولئن يموت الإنسان ضحية آلام روحية مفجعة، وتحت مكاوي فكر صراعي لاهب، خير له من أنْ يموت في ظلال سلام كاذب مخادع يبقيه حيث هو من دون زيادة في قواه الإدراكية والروحية، أو من غير امتلاكه قدرة تحررية من أسار السجن الزماني والمكاني اللذين يسحقان وجوده الإنساني ويمنعانه من استنشاق أنفاس الخلود والأبد.[٧٣]

---

[٧٣] انظر: "المثنوي العربي النوري" وصراعات النورسي "الروحية والفكرية؛ وانظر كذلك: "سعيد القديم" و"سعيد الجديد"

٧

إنَّ "المسلم الجديد" -كما يهيئ النورسي أرضية وجوده- إنسان لا يمكن أنْ تطويه الأحداث مهما قست، أو تطفئ هِمَّته الرياح مهما اشتدتْ، أو تكسر إرادته معاول الهدم مهما أوغلت في هدمها.. إنَّه مأساوي الروح، تدمى روحه، وينزف قلبه، ولكنه يظلُّ يناضل من أجل أن يَركُزَ وجوده علمًا على سارية العالم.. إنَّه يحرك الزمن في الاتجاه الذي يريد، ولا يترك الزمن يحركه إلى حيث يريد.. وهو وإنْ كان يرى في الأسباب والمُسَبَّبَات قانونًا يضرب في عمق الطبيعة إلاَّ أنه يظلُّ لعبة أطفال في نظر صانعي "غير المتوقع" من أبطال الروح والإيمان. إنَّ أذهانهم وتحسُّسَاتهم تَمْتَصُّ المتفرقات والمتجزئات في الفكر والحياة ثم تصوغها في وحدة واحدة حية تنبض بالـ"أحدية" وتخفق بأصل "واحدية" الأشياء.

٨

لقد أعطانا النورسي من المفاتيح ما نستطيع أنْ نفتح بها أفكارنا لتطلَّ على العالم وتصير له عينًا وقلبًا.. فمن الخطأ -كما يقول النورسي- الاعتقاد أنَّ الإنسان مخلوق محدود القوى، بل إنَّ قواه لا حدود لها، وطاقاته لا نفاد لها.. وعلى الرغم من نسبية قواه غير أنه قادر على ملامسة منابع الآزال والآباد المطلقين.. ومن هذا العلو سينظر إلى المدن العاتية وهي تتهاوى إلى الحضيض بإشارة من إصبعه، وستقوم الأرواح من شللها، والنفوس من موتها، وستثور جميع الأفكار من مكامنها، لتصوغ العالم من جديد وتقيمه على قواعد الحق والخير والجمال.

إنَّ إنقاذ الحالة العقلية والروحية المتردية والمعتلّة للإنسان هي من

مهام عظماء المفكرين والروحانيين في هذا العالم.. وإنَّ أيّة أفكار تسعى لانتشاله من ذلك الغور السحيق من الألم والشقاء واليأس الذي تردى فيه، ينبغي أن تقابل بمزيد من الاهتمام والترحاب. فمن جذوة هذه الأفكار تتّقد مجامر الحياة بشعلة الخلود، وهي في الوقت ذاته تغذي روح الخليقة جمعاء بالنور الذي ينير لها طريق الهداية...

إنَّ النورسي هذا الرجل الروحاني الفكر قد فكَّ الألغاز التي تكبلنا إلى الأرض، وقضى على "الحشرة المادية" السامَّة التي تسمم وجودنا، وتقتات على أرواحنا، وتجعل الإنسان خلوًا من إنسانيته، وحياته خلوًا من الحياة.

الزمن الروحي في فكر "النورسي"

يمكنكم أنْ تقولوا -وأنتم مصيبون- إنَّ "النورسي" هو رجل الغد الآتي، وفي الوقت نفسه رجل الأمس الذاهب.

فالزمن في فكره روحيّ خالص، يحياه بأبعاده كلِّها؛ ووجود حي، لا يموت ولا يفنى؛ وكلُّ كُلِّيٍّ من أيّ حِقْبة من حِقَبه أثبْتَه فقد أتيتَ الزمنَ كلَّه، وبأيّ مِفصَلٍ من مفاصله أمسكتَ فقد أمسكتَ بكلِّ مفاصله.

ولهذا الزمن الروحي خاصيَّة متفردة بين الأزمان، وهي خاصيَّة الإحياء الذي يناهض ضروب الموت، فيحفظ الأَحداث والوقائع حيةً تنبض بالحياة وتنعم بالخلود. فإذا ما أوغل "النورسي" في ماضي هذا الزمان فإنما يوغل في الزمان كلِّه، ماضيه وحاضره ومستقبله، لأنه وحدة واحدة لا فواصل بينها ولا حدود، ومتداخلة الأبعاد، إذا أمسك ببعد واحد منها فقد أمسك بالأبعاد كلّها.

فكتابات "النورسي" إنما هي هذا المزيج الزماني، يتدفق من قلمه على صفحات "رسائل النور". فأنت تقرأ فيها روح الزمان متلاحمًا مع روحه وممتدًّا فيه، ومتغلغلاً في سويدائه.. فإذا تكلَّم لا تدري أيَّ روح هو الذي يتكلم، أهو روح الزمان أم هو روح نفسه؟!

فكتاباته ماضوية حضورية، وحضورية ماضوية، والآتي الذي سيكون هو شقيق الزمن الذي كان.. وقد تتداعى الأزمان كلها لرفد زمن واحد، والزمن الواحد قد يتسلَّل إلى كل الأزمان ليزيدها حضورًا وحياةً وخصْبًا. ولقد تعلّم "النورسي" من القرآن الكريم (أستاذِه الأول والدائم) هذا الأسلوب المزجي بين الأحقاب، وتشرَّب ذهنه ووجدانه زمان القرآن

الروحي، واستوحاه في أعماله الفكرية كلِّها.

فالزمن القرآني هو زمن وحدوي كلِّي الأبعاد، لا يُجَزَّأُ ولا يُقسَّم. فالآية القرآنية وأينما كان موقعها من السورة تحتوي على الأبعاد الزمانية جميعًا، وهي مرآة تعكس سرمدية القرآن، وتعكس أزلية منزل القرآن وأبديته، فكل زمان غيرها يبدو بجانبها وكأنه برهات طافية في فراغ زماني سحيق.

إنَّ حِسَّ "النورسي" الزماني التوحدي غدا مع الأيام طابع أعماله الفكرية، مِما أضفى عليها صفاءً زمانيًّا تتجلَّى به آفاقها الأبدية، حتى لو كانت معالجات زمانية ومكانية محدّدة ومعينة.

ولكون القرآن الكريم وضع في يده زمام الزمان كلِّه، لذلك فقد انصرفت عنايته إلى المسائل الأبدية التي تُحْسَب أعمار الأكوان إلى جانب عمرها وكأنها أعمار آحاد لا تكاد تُحْسَب.

إن فكرة "الزمان الروحي" التي عالج "النورسي" على ضوئها أكبر الحقائق وأصغرها يمكن أنْ تقلب العالم رأسا على عقب، إذا هي اعْتُمِدتْ من قبل المفكرين والمؤرخين وأصحاب الرأي وتدارسوها بمزيد من التواضع والاهتمام. فمشْكلات العالم ناجمة من عجزه عن استيعاب هذه الفكرة التي تستوعب الأكوانَ ولا تستوعبها الأكوانُ. فالحياة الإنسانية تظل لغزًا غامضًا ما لم ننزلها منزلتها من حياة الأبد.

فكلما ازددنا دراسة للإنسان، وفحصًا لمكونات حياته الجوانية من فكر وحدس وخيال ومشاعر وأحاسيس وذاكرة، وجدْنا مزيدًا من الأدلّة على أن الإنسان يشعر بطريقة ما أنه صُنع للأبد، وخلِق للخلود، وأن مكانه في الأبدية في خاتمة جميع أزْمِنته، وحتى وهو بين لُجَب الحضارة والصناعة

يرتدي فوق إهابة -أراد أم لم يرد- حُلَّة من القداسة تظل محفوظة من أدخنة المصانع وسحب الأجواء الملوّثة بالغبار والتراب والسخام، إلى حين العودة إلى نفسه والرجوع إلى ذاته، الحافلة بتاريخ الروح والمفعمة بالفهم والأدراك... فأيُّ زمان نسبي لا يتلاشى أمام هذا الزمان الروحي المطلق الأبعاد، والذي يموج بكبرى وقائع الروح الإنساني وعظائم أحداثه وصراعاته وكفاحاته من أجل تحقيق ذاته وإثبات وجوده.

فـ"النورسي" يرى في تنزلات الكتب الإلهية ولاسيما القرآن إسهامًا إلهيًّا مع الإنسان في كفاحه الدائم من أجل إحراز الانتصار على نسبيات العالم وفنائياته، وتأهيل الروح لتجد مكانها من الأبدية التي تتوق إليها. فكلما ارتفع الروح زاد نتاجه وعظمت أمجاده وعَمَّ نفعه، واجترح من المعجزات والابتكارات والإبداعات ما يُضاف إلى إرث الإنسانية، ويزيد في تاجها دُرَّةً جديدة من درر الروح الإنساني العظيم.

فالتعريف المبتكر الذي يقدمه "النورسي" للقرآن الكريم يكشف لنا عن عمق "الزمان الروحي" في نفسه، وانعكاسات ذلك في أفكاره وكتاباته، فيقول:

"إن القرآن الحكيم الذي يعرِّف لنا ربَّنا:

- هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات،
- والترجمان الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية،
- ومفسّر كتاب العالم،
- وكذا هو كشّافٌ لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السموات والأرض،
- وكذا هو مفتاح لحقائق الشؤون المُضْمَرة في سطور

الحادثات،

• وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة،

• وكذا هو خزينة المخاطبات الأزلية السبحانية والالتفاتات الأبدية الرحمانية،

• وكذا هو أساسٌ وهندسةٌ وشمسٌ لهذا العالم المعنوي الإسلامي،

• وكذا هو خريطة للعالم الأخروي.[٧٤]

وأود أنْ أنبّه إلى أن هذه النقاط التسع ليست هي كل تعريفاته للقرآن. فقد اكتفيتُ بها لأنها تفي بالغرض الذي أتوخاه في هذا المقام. فهو في هذه التعريفات يعطي للكائنات بُعدًا أزليًّا وبعدًا أبديًّا، ويشعرنا بأنَّ هذين البعدين يمسكان بالخليقة ويصبَّان فيها زمانًا إلهيًّا وحدوي الأبعاد لترى نفسها على حقيقتها من خلالهما، ولتختار مكانها منها على علم ودراية، ولتقوم بعد ذلك بتفسير العالم والزمن والتاريخ على ضوء هذه الاختيارات.

فالتاريخ البشري هو خيال الزمن الروحي، وظلٌّ من ظلاله، وطيف شاحب من أطيافه، ويستمد من روح الزمان ووحدته الوجودية عناصر صيرورته وامتداداته، غير أن الإنسان يأبى إلا أن يحدَّ من نفسه، ويُصاغِرَ من وجوده، فيضغط التاريخ، ويقارب بين مطلق أزمانه، ثم يجزئه ويقسمه إلى حِقَبٍ وأزمان، على الرغم من أنّ الإنسان الذي هو مادة التاريخ الأولى مرتبط بحقيقة كُلِّ الوجود متفاعل ومتناغم معه، فما لم يُفْهَمْ الكلُّ

[٧٤] الكلمات، [الكلمة التاسعة عشرة/ الرشحة الرابعة عشرة]، سعيد النورسي.

لا يُفهَمُ الجزء.

فالتاريخ إنما هو انفعال زماني حافز لتحريك قوى التحدي لدى الإنسان عندما تداهمه نذر الفناء والزوال، حرصًا منه على الامتداد الخالد في الروح الزماني الحفيظ على نضالات الروح وعلى ارتقاءاتها في سلّم الانعتاق الأبدي من آسار الزمان والمكان.

وأعود فأقول إنَّ الزمان الروحي عند "النورسي" ليس هو بأسلوب كتابة وتفكير فحسب، بل هو أسلوب حياة، وطريقة عيش وسلوك، لأنه يسرى في عروقه وأعصابه ويخالط دمه.. فصاحب هذا الزمان لا يمكن أنْ يضلِّلَ العقول، أو يستهين بالأفهام، كما قال مخاطبًا تلامذته:

"اعْلموا أنني لا أخدعكم، ولا أقول لكم إلاّ ما لامستُه وأبصرتُه عن تجربة ودراية".

"أقول تحدثًا بالنعمة وأداء للأمانة بأني لا أخدعكم، إنما أكتب ما أشاهد أو أتيقن عين اليقين أو علم اليقين"[٧٥].

"فما كتبتُ إلاّ ما شاهدتُ.. بحيث لم يبق لنقيضه عندي إمكانٌ وهْمي"[٧٦].

"إذْ سلكتُ طريقًا غير مسلوك، في برزخٍ بين العقل والقلب"[٧٧].

فهو يريد أن يحفّز تلامذته إلى أعظم أعمالهم وأخلدها على الزمان، ويجعلهم يتلمحون الحقيقة المجرَّدة التي تضل عنها حواس الأزمنة القصيرة وعقل الزمن ذي الوحدات المجزأة والمقسَّمة.

---

[٧٥] المثنوي العربي النوري، سعيد النورسي، ص ٣١٨.

[٧٦] المثنوي العربي النوري، سعيد النورسي، ص ١٠٨.

[٧٧] المثنوي العربي النوري، سعيد النورسي، ص ٣٥.

فالتقاؤنا بالروح الإلهي عبرَ هذا الزمان لا يفوق طاقة الإنسان وقدراته الروحية، إذا هو أرهف حسَّه الزماني، وشحذ بصيرته الإدراكية، وتجاوز مسائل الساعات العابرات، وكثّف جهده من أجل الكشف والرؤية.

ولا يمكن إدراك هذه الرؤية إلاَّ من خلال جرأة روحية تواجه الامتداد الزماني بوعي امتدادي مثله، وبهذه الرؤية يمكننا الحكم على أحداث التاريخ ليس من خلال سياقاتها الزمانية فحسب، بل ومن خلال وشائجها الكونية والقدرية كذلك، فلا نخطيء الحكم ولا نشتطُّ فيه، وسنرى إذا ما أرهفنا بصيرتنا الروحية أن ما من حدث إلا ويكمن فيه الماضي كما يكمن فيه المستقبل، وما من حدث إلا وهو تركيبة عجيبة تختلط فيه جميع الأزمنة؛ حاضرها وماضيها وآتيها، فكما تفنى جميع ألوان الطيف في البياض الذي هو ملتقى الألوان، هكذا تفنى الأزمنة كلها في الحدث التاريخي المرصود مترجما عن زمانية واحدة هي زمانية "الأبد الموعود".

فالتاريخ البشري لا يمكن أن يكون مصدرا من مصادر التنوير الفكري والمعرفي كما يريد القرآن، مالم يواكب حِسُّنا التاريخي امتدادات الزمان في كل أبعاده وحتى نهائياته الكونية، وهذا هو الحسُّ الجامع الذي اعتمده "النورسي" في رؤاه للزمن وللتاريخ.

الجمال والخلود في "رسائل النور"

١

في أكثر من مكان من رسائل النور يشير النورسي إلى أنَّ النفس الإنسانية هي عبارة عن مجموعة كبيرة من اللطائف والنوازع الفطرية المختلفة، وأنَّ هذه اللطائف والنوازع تبقى في ظمأ شديد، وفي اشتياق أبدي إلى ما يروي ظمأها ويشبع جوعتها.. لكُلٍّ منها رِيُّها وَقُوتُها الخالصان بها؛ فما يروي العقل غير ما يروي الروح، وما يروي الحسَّ غير ما يروي الشعور، وما يشبع خيال الروح غير ما يشبع خيالات البدن، ونزوع النفس الحرُّة إلى المغيبات في حاجة إلى رواء غير الرواء الذي تحتاجه النفوس الحبيسة في قمقم أجسادها.. ولكي يتهيأ لنا أن نستقي من ينابيع القرآن جميعًا علينا أن نُقْبل عليه بِجَمع كياننا، وبجميع لطائفنا، وبكل نوازعنا، ومن هنا عاب علماؤنا على بعض الفرق الإسلامية إتيانها القرآن من بعض منافذ النفس دون بعض.

والنفس السليمة تنجذب بفطرتها إلى الجمال والجميل، وكل جمال وجميل يوقظ حبّنا ويأخذ بمجامع قلوبنا لسبب وحيد وذلك لظهوره بمظهر من ينطوي على قوًى هي أعظم من جرمه، وأعمق وأوسع مما يبدو على ملامح شكله، وأن فيه لمحة من ملامح الخلود تضيء قلوبنا، وتصعق أرواحنا.. فالجمال الإلهي الذي يندّ عن أي شكل لا يلبث أن يأخذ أشكالاً عديدة ويتصور بصور مختلفة حين يهبط الأرض وينزل منها منازله.

والنورسي يرى "أن كلاً منا هو مرآة كبيرة واسعة" قابلة لاستقبال

الصور التي يبثّها الكون والحياة، من حولنا، وإننا لننفعل بما تنقله إلينا هذه الصور من رسائل ونسعى إلى فهمها، والكشف عما ترمز إليه من المعاني والأفكار، وما تنطوي عليه من أسرار الحسن والجمال، ومن حيث كوننا مرايا يظلُّ الواحد منا يتلقى طوال حياته سيولاً هائلة متتابعة لا تتوقف من الصور، وتزدحم بها ذاكرته وينتخم بها عقله.

ولضعف في قوة الإبصار، وصدأ مزمن في المرآة، وكلال في الذهن على استبانة حقائق الأشياء، يتلقى الإنسان المنكود الصور الهابطة عليه من سماء الحق مشوشةً ومشوهةً، لا يتبين حقيقتها، ولا يدرك رمزها، ومن هنا تنشأ الانحرافات وتتجذر الكفريات، ويكبر الجحود، ويتفاقم الإنكار، وتصبح الماهية الإنسانية التي هي في الأصل "مرآة جامعة للأسماء الحسنى كلها" كما يقول النورسي، عدسةً مشتتةً لهذه الأسماء وطامسة لأنوارها وجلواتها في مرايا الموجودات.

٢

والمرآيا العاكسة التي تعكس كُلُّ واحدة منها -بحسب حجمها وعلى قدر صقالتها وشدة نقائها- بعضًا من أنوار تجليات الأسماء الإلهية الحسنى. فإن هذه المرآيا إذا ما نُظِرَ إليها بمنظار "التوحيد" عُرِف أن مصدر نورها واحد، ومنبعه واحد، فيجتمع بهذا النظر شتاتها، وتتوحد أجزاؤها، ويلتحم بعضها ببعض، وتصير -بسرّ التوحيد- مرآة واحدة كبرى تعكس وحدة النور وأحدية المُنَوِر.

والوحدة والتوحيد سنة كونية تدفع بالأشياء من الجزئية إلى الكلية، ومن الشتيت المتفرق إلى الواحد المتجمع، وتسعى إلى رتق ما يتفتّق،

وتركيب ما يتفكك، حتى أن القرآن الكريم يشير إلى هذه السنة الكونية الإلهية فيقول: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾(لُقْمَان:٢٨)، ويقول: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾(الْمَائِدَة:٣٢).

فالبشرية بأجيالها المتعاقبة منذ آدم عليه السلام وإلى أن تقوم الساعة مختزلة في أي فرد من أفرادها.. فقتل هذا الفرد من غير وجه حق كأنه قتلُ البشرية بأسرها، وإحياؤه -أي مساعدته على حفظ حياته- كأنه إحياءُ للبشرية كلها.. وهذا الفرد وسرّ كينونته منطوٍ في أصغر خلاياه، كما أن أعظم طاقات الكون مخفية في الذرة الواحدة من ذراته.

يقول النورسي في هذا المعنى:

"نعم، إنَّ ثمرة واحدة وزهرة واحدة، وضياءً واحدًا، كُلٌّ منها يعكس كالمرآة الصغيرة رزقًا بسيطًا، ونعمة جزئية، واحسانًا بسيطًا، ولكن بسرّ التوحيد تتكاتف تلك المرايا الصغيرة مع مثيلاتها مباشرة، ويتصل بعضها بالبعض الآخر، حتى يصبح ذلك النوع مرآة واسعة كبيرة جدًّا تعكس ضربًا من جمال إلهي يتجلى تجليًا خاصًّا بذلك النوع، فيظهر سرَّ التوحيد حسنًا سرمديًا باقيًا من خلال ذلك الجمال الفاني الموقت، بمعنى أن ذلك الشيء الجزئي يتحول بسر التوحيد إلى مرآة للجمال الإلهي"[٧٨].

وفي النافذة السادسة والعشرين من رسالة "النوافذ" يقول النورسي:

"إنَّ أنواع الجمال الزاهر، وأشكال الحسن الباهر، التي تتلألأ

[٧٨] الشعاعات، سعيد النورسي، ص:٨-١١.

على وجوه الكائنات السريعة الأفول، ثم تتابع هذا الجمال وتجدده بتجدد الكائنات، واستمراره باستمرار تعاقبها، إنما يُظهر أنها ظل من ظلال تجليات جمالٍ سرمدي لا يحول ولا يزول... تمامًا كما أن تلألأ الحباب على وجه الماء الرقراق، وتتابع هذا اللمعان في تتابع الحباب يدل على أن الحباب والزبد والتموّجات التي تطفو على سطح الماء إنما تمثل مرآيا عاكسة لأشعّة شمس باقية..

فتلمُّع أنواع الجمال أيضًا على الموجودات السيالة في نهر الزمان الجاري يشير إلى جمالٍ سرمدي خالد، ويدل على أن تلك الموجودات إنما تمثل إشارات وعلامات على ذلك الجمال.

ثم إن ما يخفق به قلب الكون من حُبٍّ جادّ وعشق صادق، يدل على معشوق دائم باقٍ. إذْ كما لا يظهر شيء في الثمرة ما لم يوجد في الشجرة نفسها، فكذلك العشق الإلهي العذب الذي يستحوذ على قلب الإنسان -وهو ثمرة الكون- يبين أن عشقًا خالصًا ومحبة صادقة بأشكال شتى مغروزة في كيان الكون كله، وتتظاهر بأشكال شتى... هذا الحب المالك قلب الكون يفصح عن محبوب خالد سرمدي..."[٧٩].

فمادام أن الكون شجرة كما يراه النورسي والإنسان ثمرة هذه الشجرة، والثمرة لا يمكن أن تحمل من الخصائص والصفات ما لا تحمله الشجرة ذاتها، ولما كان الإنسان يحسُّ في حالة صحو الروح، وصفاء القلب بوجد وتوق متدفق نحو خالقه وموجده، لذا فإن الكون -الذي هو شجرة

[٧٩] الكلمات، سعيد النورسي، ص:٨١٦-٨١٧

الإنسان- لا بد وأن يحمل نفس ما تحمله ثمرته "الإنسان" من مثل هذا الوجد والتوق إلى الخالق العظيم ذي الجلال والجمال.

ويسير النورسي موغلاً في عمق هذه المعاني حيث يقول:

"ثمَّ إنَّ ما تمور به قلوب اليقظين الراشدين من أصفياء الناس، وما يشعرون به من انجذاب، وما يؤرقهم من وَجْدٍ وما يحسون به من جذبات، وما تتدفق به صدورهم من توق وحنين، إنما يدل على أن حنايا ضلوع الكون تعاني ما يعاني الإنسان. وتكاد تتمزق من شدة انجذابها وعظيم جذباتها التي تتظاهر بصور متنوعة، وهذا الجذب لا ينشأ إلاّ من جاذب حقيقي وجاذبية باقية أبدية... (إلى أن يقول:) ثم إنَّ قلم التجميل والتحسين الذي يبدع نقوشه في وجه الكائنات، يدل بوضوح على جمال أسماء مالك ذلك العليم المبدع...

وهكذا فالجمال الذي يشع من وجه الكون،

والعشق الذي يخفق به قلبه،

والانجذاب الذي يمتلئ به صدره،

والكشف والشهود الذي تبصره عينه،

والروعة والإبداع في مجموع الكون كلِّه..

كل ذلك يفتح نافذة لطيفة جدًّا ونورانية ساطعة أمام العقول والقلوب اليقظة يتجلى منها ذلك الجميل ذو الجلال، الذي له الأسماء الحسنى، وذلك المحبوب الباقي والمعبود الأزلي..."[٨٠].

---

[٨٠] الكلمات، سعيد النورسي، ص:٨١٧.

٣

إنَّ شيئًا ما ينحدر إلينا من منابع الأبدية عندما نروح في استبحار فكري وروحي في الأمداء المهولة البعد من محيطات النفس والوجدان، وهذا يعني أنَّ "الخلود" مُجَوْهَرٌ في مناجم الروح، وأنَّ بذرة "الأبدية" منطوية في وجدان كل إنسان.

والنورسي يرصد هذه الظاهرة ويقدم لنا التفسير الآتي:

"إنَّ هذه الأشياء لم تخلق للفناء بل للبقاء، بل إنَّ فناءها الظاهري ليس إلاَّ إطلاقًا لسراحها بعد أن أنهت مهامها، وكما أن الشيء يفنى من جهة إلا أنه يبقى من جهات كثيرة:

تأمل هذه الزهرة -وهي كلمة من كلمات القدرة الإلهية- إنها تنظر إلينا مبتسمة لفترة قصيرة ثم تختفي وراء ستار الفناء، فهي كالكلمة التي تتفوه بها والتي تودع آلافًا من مثيلاتها في الآذان، وتبقى معانيها بعدد العقول المنصتة لها، وتَمضي بعد أن أدَّتْ وظيفتها وهي إفادة المعنى.

فالزهرة أيضًا ترحل بعد أن تودع في بذيراتها ماهيتها المعنوية، فكأنَّ كلّ ذاكرة وكُلَّ بذرة بمثابة صور فوتوغرافية لحفظ جمالها وصورتها وزينتها ومحل إدامة بقائها. فلئن كان المصنوع وهو في أدنى مراتب الحياة يعامَلُ مثل هذه المعاملة للبقاء، فما بالك بالإنسان الذي هو في أسمى طبقات الحياة، الذي يملك روحًا باقية، ألا يكون مرتبطًا بالبقاء والخلود..؟!"[٨١].

---

[٨١] الكلمات، سعيد النورسي، ص:٨٠.

والرغبة بالخلود والدوام هي حافز أعظم الأعمال الفكرية والوجدانية. فآمال الإنسان وأشواقه وأحلامه وخياله وفكره وآدابه وفلسفاته، وما قاله من حِكمٍ، وتغنَّى به من شعر، إنما هو تعبير عن نفس الهاجس، ولولم يتوهم لمحة من لمحات الخلود في أعماله الفكرية والإبداعية وبناه الحضارية لما كلَّفَ نَفْسَهُ عناء التفكير ومشقة الإبداع، ولو لم يتوهم بعضًا من علامات الخلود والدوام فيما يحبُّ ويهوى لما أحبَّ ولما هَوِيَ، ولما التذّ بعمل أو سُرَّ بشيءٍ من أعماله، كما يشير إلى ذلك النورسي.

فالزمان الدنيوي المحدود عاجز عن المضي مع الإنسان إلى آخر الشوط في خياله الذي لا حدود له، ومع أشواقه التي لا نهاية لها. فلا بُدَّ من زمن أخروي لا حدود له تصبُّ فيه الأزمنة كُلُّها بخيرها وشرِّها، وتصبُّ فيه آمال الإنسان وأحلامه وأشواقه بخيرها وشرِّها، وتطويها دفاتر الأبد وسجلاته. يقول النورسي:

لو قيل لقدرة التخيل في الإنسان -وهي إحدى وسائل العقل، وأحد مصوريه- "سَتُمْنَح لكِ سلطنةُ الدنيا وزينتها مع عمر مديد يزيد على مليون سنة، ولكن مصيركِ إلى الفناء والعدم حتمًا"، نراها تتأوّه وتتحسَّر...

أي إنَّ أعظم فانٍ -وهو الدنيا وما فيها- لا يمكنه أن يشبع أصغر آلة في الإنسان وهي الخيال.

يظهر من هذا جليًّا أنَّ هذا الإنسان الذي له الاستعداد الفطري، والذي له آمال تمتدُّ إلى الأبد، ورغبات تنتشر في ثنايا أنواع السعادة الأبدية... هذا الإنسان إنما خلق للأبد وسيرحل إليه حتمًا،

فليست هذه الدنيا إلاَّ مستضافًا موقّتًا، وصالة انتظار الآخرة"[٨٢].

٤

وحبُّ الجمال، والانتشاء بمشاهدته والاقتراب منه، ومحاولة امتلاكه، والاستحواذ عليه بالفكر والحسِّ والخيال، هو قضية معروفة ومشاهدة في الإنسان، حيث يمتطي خياله، ويظلُّ سابحًا في ملكوت الجمال، يجوس خلاله، ويطوف بين أمدائه وهو يلاحق مغيبات الحسن في خبايا الكون والحياة والإنسان، مدفوعًا إلى ذلك بنازع فطري وبحافزٍ روحي يَوَدُّ لو يشرب جمال العالم كله، ويطويه في حشاشته.

غير أنَّ هذا "الخيال" -وهو يبحث عن لمحات الجمال ويلاحقها في كل مكان- يقودنا إلى تيهٍ يباب، ويقف بنا في منتصف الطريق مُنْبَتّينَ هالكين، لأنه يبحث عن جمال مجازي، ويلاحق حسنًا فانيًا زائلاً، بينما هو مرصود لكي يتلمس لمعات الحسن الحقيقي، ويبحث عن أنوار جمال سرمدي لا يفنى ولا يزول، لذلك فسيظَلُّ جائعًا لا يشبع، وظامِئًا لا يروى؛ لأن كُلَّ جمال يلتقيه إنما هو جمال نسبي محدود فانٍ، وفوقه جمال هو تجلٍّ من تجليات نوره، كتجلي نور الشمس -ولا مشاحة في المثال- على المرايا وقطرات الماء وحباب البحر، هو ليس بالشمس ولا بعض منها، ولكنه بسرّ النورانية والشفافية يدخل كُلَّ شيء من غير أن يحتويه شيء، ويقرب من كل شيء بينما هو بعيد عن كل شيء كما يشير إلى ذلك النورسي رحمه الله.[٨٣]

---

[٨٢] الكلمات، سعيد النورسي، ص:٩٥.

[٨٣] انظر: الكلمات، سعيد النورسي، ص:١٨٩.

ومعلوم بداهةً أنَّ الجمال -أي جمال- يحبُّ أن يَشْهَدَ نَفْسَهُ في مراياه ومرايا الآخرين، ويَودُّ أنْ يكون موضع إعجاب واستحسان غيره، ولمَّا كان الجمال الإلهي سرمدًا وخالدًا وأبديًّا، فهو يقتضي خلود أولئك المشتاقين ودَيمومتهم.. فمنح الخلود للمؤمنين المشتاقين للجمال الإلهي هو من مقتضيات أبدية هذا الجمال وسرمديته كما يقول النورسي:

"ولمّا كان الجمال والحسن خالدين سرمديين، فإنهما يقتضيان خلود المشتاقين وديمومتهم، لأنَّ الجمال الدائم لا يرضى بالمشتاق الزائل"[٨٤].

فالإنسان رهين الخلود، محكوم به عليه، مذهوب به إليه، سواء استسلم لقضاء الله فيه، أم تمرد عليه.. وسواء آمن واتَّقى، أم جحد وكفر.. فكما جاء إلى الدنيا بغير إرادته، فإنه مغادرها كذلك إلى الآخرة بغير إرادته؛ فلا فكاك له عنها، ولا مصرف له إلاَّ إليها.. لأنها موصولة به بحبال منسوجة من خيوط روحه، فهو مشدود إليها، وهي مشدودة إليه، ولا خلاص لأحدهما من الآخر.

إنَّ "وجود الإنسان" موجود في علم الله تعالى قبل أن يمنحه إياه، ويُتَوِّجُه بالروح والحياة، ولأن علْم الله تعالى أزليّ وأبدي، فمن البديهي أن يكتسب هذا الوجود ظلاً من ظلال الدوام والبقاء، وهو بهذا الانتساب الإلهي لا يمكن أن يتفكك أو يمضي لأي سبب من الأسباب في طريق "التلاشي" والوصول إلى نقطة "اللاَّوجود" والانحدار نحو العدم.

فـ "وجود الإنسان" -ابْتداءً- إنما هو خروج من دائرة "العلم" إلى دائرة

---

[٨٤] الكلمات، سعيد النورسي، ص:٧٢.

"القدرة". ووجوده -انتهاءً- هو خروج من دائرة "القدرة" إلى دائرة "العلم" ثم العودة مرةً أخرى إلى دائرة "القدرة" للحساب والثواب والعقاب، وهو في هذه الحالات جميعها موجود غير معدوم. فهو -أي الإنسان- إما أن يكون موجودًا في "علم الله" أو موجودًا في "قدرة الله" ولا في شيء غيرهما.

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شيءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ﴾(القصص:٨٨)، يقول النورسي:

ثمَّ إن العدم المطلق لا وجود له أصلاً، لوجود "العلم المحيط" علمًا أنه لا شيء خارج عن دائرة العلم الإلهي كي يمضي إليه شيءٌ ما، والعدم الموجود ضمن دائرة "العلم" هو عدم خارجي، وهو عنوان صار ستارًا على الوجود العلمي، حتى حدا ببعض العلماء المحققين التعبير عن هذه الموجودات العلمية بأنها "أعيانٌ ثابتة"، لذا فالذهاب إلى الفناء هو نزع الأشياء لألبستها الخارجية موقتًا ودخولها في وجود معنوي وعلمي، أي أنَّ "الهالكات والفانيات" تَترك الوجودَ الخارجي وتلبس ماهياتُها وجودًا معنويًّا، وتخرج من دائرة "القدرة" وتدخل في دائرة "العلم"[٨٥].

والكافر -كما يحكي عنه القرآن- حين يرى العذاب المنصبّ عليه في نار جهنّم، يهتف صارخًا: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾(النَّبأ:٤٠)، متوهمًا أنَّ التراب مواتٌ لا يُحسُّ بالعذاب. بينما الأرض ومنها التراب هي مظاهر قدرته تعالى ورحمته وإحسانه، فحفنة من تراب يمكن أن يُسْتَنبَت فيها

---

[٨٥] المكتوبات، سعيد النورسي، ص:٧٥.

كُلُّ أزهار العالم وأشجاره على اختلاف أنواعها وألوانها وطعومها، كما يقول النورسي:

"فالتراب حياة وإحياء، ومن هنا كان المؤمن أقرب ما يكون إلى الله وهو ساجد كما جاء في الحديث الشريف، لأنه أقرب ما يكون إلى التراب الذي تتجَّلى فيه أسماؤه الحسنى، حتى كره بعض الفقهاء السجود على ما يحجب جبهة الساجد عن الأرض.

فالتراب فيه خاصية إحياء كالماء، لذا فهو يقوم مقامه في الوضوء والطهارة حين يَعِزُّ الماء أو يختفي. فالتراب الذي يتمنَّى الكافر أن يكونه ليس عدمًا ينجيه من العذاب كما يتوهم، فلا خلاص له مهما صار إليه من أشياء، أو تحول إليه من أحوال، لأنه مسجون الوجود، ولا عدم يمكن أنْ يتلاشى فيه، أو يذوب في قعره ليخرج من شيْئيّته الإنسانية، ويتخلص من مسؤولية فكره وعقيدته، فالله تعالى من حيث ربوبيته، قد جعل سبحانه "المخلوقات الأرضية" عروشًا له، إذ جعل "الهواء" نوعًا من عرش لأمره وإرادته، و"عنصر النور" عرشًا آخر لعلمه وحكمته، و"الماء" عرشًا آخر لإحسانه ورحمته، و"التراب" نوعًا من عرش لحفظه وإحيائه"[٨٦].

[٨٦] المكتوبات، سعيد النورسي، ص:٢٩٧.

حاشاك حاشاك يا ربُّ حاشاك..!

١

بيديك خلقتني وصورتني،
والروحَ وهبتني،
مَيْتًا كُنْتُ فَأحييتني..
فحاشاكَ حاشاك لِأَبيد الموتِ تَتْرُكني...

٢

من رَحِم الطِّينِ أَوْلَدتَّني،
وإِنسانًا صَيرتني،
والإرادةَ منحتني،
وبالعقل جَمَّلْتَني..
فحاشاك حاشاك طينًا بعد ذاك تعيدني...

٣

عَدَمًا كُنْتُ فَأَوجدتني،
وإلى بحر الوجودِ قذفتني،
وبِقَيْدِهِ قيَّدتَّني..
فحاشاك حاشاك أنْ للعدمِ كرَّةً أُخرى تُسْلِمُني...

٤

في عَمَى "اللاَّشيئية" كنتُ، فَشَيأْتني،

وفي عَمَايَ ضَوَأْتني،
ومن "اللاَّشيئية" أطلقتني،
فَصِرْتُ في الأشياءِ شيئًا،
وفي الموجودات موجودًا..
فحاشاك حاشاك -وأنت الكريم المعطاء-،
أن تنزعَ عني شيئيتي،
وتَسْلُبَني حيثيتي،
وإلى الفناء مرَّةً أُخرى تَرُدُّني...

٥

من ظلماء الفناء انتزعتني،
وماءَ الخلود سقيتني،
وبحبِّ البقاء رَغَّبْتَني،
وبجمالِ الأبدية أشجيتني،
وللسرمدية شَوَّقْتَنِي..
فحاشاك حاشاك أن تطردني،
وعن باب الخلود تمنعني...

٦

حفيظَ الغيب كنتُ،
غريقَ الصمتِ بِتُّ،
ساكنَ الروح هامِدَ الحِسِّ مشلولَ الارادة،

محجوبَ الرؤية، مسلوبَ الحضور، حقبًا مديدةً أمضيتُ..
فمن غيبوبتي أيقظتني وأنطقتني،
لا كينونة لي فكونتني،
وبقداسة الوجود بَصَّرتني،
وبالخلود بَشَّرتني..
فحاشاك حاشاك أن تفوتني،
وغريبًا في دروب الوجود تتركني،
لا هوية ولا ماهية،
فما هذا من شأنك،
ولا ذاك -يا ربُّ- من عادتك...

٧

من نَبْعِ جمالكَ سقيتني فَرَوَّيتَنِي،
وفي سَنَا جلالك هَيَّمتَني،
وفي ليالي العشقِ أسْهَرْتَنِي،
وَعَذبًا عَذَابَكَ جَرَّعْتَنِي،
وعن جَوَادِ الوَجْدِ أبدًا ما رَجَّلْتَني..
أَتَرَاكَ تَقْتُلُني،
وبسيف الجفا تَذْبَحُنِي،
وَغُثَاءً جُفَاءً فوق يَمّ الشوقِ هَمْلاً تَتْرُكُنِي،
وكأَنَّكَ ما عَرَفْتَنِي،
ولا بيديك خلقتني،

ولا بأسناء جمالك أحييتني..
فحاشاك حاشاك أنْ تكون هذه فِعَالُكَ،
وتلك سُنَنُكَ...

مُتْرَعٌ قلبي بِسِرِّ ذكراك،
مَوَّارٌ بالشوق إلى لُقْيَاكَ،
ولَهًا بِكَ ولَّهْتَني،
ولكَ وَحْدَكَ أردتني،
ومِنِّي إليكَ أَخَذْتَنِي،
بحبي لك سأشتري كُلَّ آلاَمي،
وسَأُنْعِشُ ذاكرةَ خيالي وَرُؤايَ وآمالي..
فحاشاك حاشاك -يا جواد يا كريم- أنْ تَرُدَّني،
وعَنْكَ تُبْعِدَني،
وبأساي تقيدني،
وبنجيع الروح تهلكني،
فلا ذاكرة ولا خيال ولا رُؤى،
ولا كنتُ ولا كُنَّا،
ما هذا المؤمَّل منك،
ولا هذا يقيني بك،
وتوكلي عليك...

٩

من يوم "ألستُ بربكم...؟" وائْتَنِي وعاقَدْتَّني،
وغارَ العبودية قَلَّدْتَّني،
وفي كنف رعايتك عَيَّشْتَنِي،
وبالجنَّةِ أَمَّلْتَني،
"بلى" قلتُ،
أعْلَنْتُ وأَسْرَرْتُ..
فحاشاك حاشاك "للبِلَى" تتركني،
وللفناء ترسلني،
فَبِحَقِّ "بَلَى" التي أنطقتني لا تجعل "لِلْبِلَى" إليَّ سبيلاً،
ولا عَلَيَّ وكيلاً...

١٠

خوفي من الموت يُعَذِّبُني، يتآكَلُني،
وإلى بيداء الهواجس يأخذني،
أنيني على عَتَبات "أَنايَ" يتكسَّرُ،
وَرُعْبي شآبيبُ آهاتٍ تتحَسَّرُ،
لِمَ الحياة -يا ربُّ- إنْ كُنَّا إلى الموت سِرَاعًا نمشي؟!
ولِمَ الوجود -يا ربُّ- إنْ كُنَّا إلى العدم سراعًا نمضي؟!.
فحاشاك -يا ربُّ- حاشاك أن تخلقنا للموت وتُوْجِدَنا للعدم،
أمْ أنّ توهم الموت هو الموت، وتوهم العدم هو العدم؟!.

١١

قلبًا سَكَنْتَهُ،
وبنور وَجْهِكَ أَضَأْتَهُ،
ولِعِشقِكَ وَحْدَكَ خَلَقْتَه،
وَبَيْتًا لِذِكْرِكَ بَنَيْتَهُ،
أَتُرَاكَ تَهْدِمُهُ،
وترابًا تَذْرُوهُ رياحُ العَدَمِ تُصَيِّرُهُ؟!.
فحاشاك حاشاك -وأنت الربُّ الرحيم-،
أنْ تَهْدِمَ بيتًا لِذِكْرِكَ بَنَيتهُ،
وتقوض مَكْمَنًا لِسِرِّكَ آدَّخرْتَهُ،
وتهتك مكنون جوهر علمك،
وموضع تنزلات إلهاماتِك...

١٢

يَا لَيْلاً أَتَيتُهُ،
سُجَّادةً فَرَشْتُهُ،
وقلبًا أَسْرَجْتُهُ،
وفتيل الروح شمعًا أشْعَلْتُهُ،
وبسربال الأسرار سَرْبَلتُهُ،
ما خَبَتْ شُعْلَتُهُ،
ولا انطفَأَتْ شَمْعَتُهُ..
يَا مَوْجَ الدُّجَى،

بقوةٍ إليكَ خُذْنِي...
وإلى بحارك النَّائِيَاتِ قُدنِي،
كَمْ عَشِقْتُ الأبحارَ في بحار الأسرار،
حتّى انكشف سِرّي،
وانفضَحَ أمري،
وبكتني البحارُ،
وحَزِنَتْ لحزني الخُلْجَانُ،
أَفَتُطْفِيءُ -وأنتَ رَبُّ القلوب-،
قلبًا أسَرَجْتُهُ إليك،
وروحًا أَشْعَلْتُهُ لكَ،
وحُرْقَةَ عِشْقٍ ما لغيركَ احترقَتْ،
ولا لِسوَاكَ تَلَهَّبَتْ؟!.

١٣

خلقتَني وبالخلق كبَّلْتَني،
وبسلطنة القلب قيدتني،
وإلى عشق الجمال شدَدتني،
وبهِ أَظمأتني،
وإليه شوقًا أشعلتني،
وإلى سرمدية جمالك دعوتني،
فأَشْعَلْتَ نارًا،
ونشرتَ حريقًا،

فإذا بي أنحدرُ صَبَبًا،
وأَنتصبُ صُعُدًا،
وَأُطلقُ أَصواتًا جَئَارَةً جذلى:
خذني -يا مدى العشق غير المتناهي- إلى حيث تمضي،
وضَمَّا إليك ضُمَّني،
حَلِّقْ بي وألقني على الضفاف المومضة في الأعالي،
بدمي أُغَذِّي أُوَّارها،
وأُطعمُ شَرَارَها،
إنها مضيئة ظلام حزني،
وطاويةً في أحشائها ليالِيَ يأسي...

١٤

ظَمِئَتْ كأسي فلا شراب،
وعطشتْ روحي فلا رواء،
وأجدب قلبي فلا اخضرار،
وتَصَحرَّتْ نفسي فلا شيء غيرُ سراب!.
مَنْ يسقني -يا ربُّ- إن لم تسقني،
مَنْ ينقذني من الهلاك ظمَئًا إنْ لم تنقذني؟!.
بنَدى لطفك -يا ربُّ- فانضحني،
وببليلِ رحمتك -يا ربُّ- بُلَّ عطشي،
ومِنْ نَبْعِ تَعَطُّفِكَ فَرُشَّ كُلَّ يابسٍ من نفسي،
وكُلَّ عَطِشٍ من قلبي وروحي..

أَتُراكَ -يا ربُّ يا رحيم- تعدم قلبًا نديًّا بذكرك،
وتحرق بنار الهجر روحًا رطبًا لاهجًا باسمك؟!.
حاشاك حاشاك -يا رحيم يا رحمن- أن تفعل ذلك...!

البعد الكوني في أخلاقيات "رسائل النور"

١- معنى الأخلاق

يمكننا القول دون أن نُبْعِدَ:

إنَّ "الأخلاق" تعني في أقرب ما تعنيه، هندسة الجمال في السلوك البشري، والميزان الذي توزن فيه فِعَال المرء في مختلف أحواله، وبه تُقوَّم أفكار الضمير وخواطر النفس بما يعكسانه من خلال وسجايا على كامل شخصية الإنسان. فأيُّ فعل ينبعث من قاعدة سلوكية ثابتة لدى المرء هو فعل أخلاقي، وهو فعل خَلاَّق في الوقت نفسه، لأنه يسهم مع الأخلاقيات الأخرى في إنشاء صرح السلوك الجمالي في العالم الذي هو مطمح نظر الأنبياء والرسل والحكماء والفلاسفة وعموم الأخلاقيين في كل زمان ومكان.

فالموجودات المحيطة بالإنسان من كل جانب هي كيانات "خلْقية"، و"خُلُقية" في آن واحد، "خلْقية" لأنها صنيع الإرادة والقدرة الإلهيتين، أي مخلوقاتهما. و"خُلُقية" لأنها محكومة بهندسة جمالية منضبطة لا "عشوائية" فيها، ولا "فوضوية" تسيّبية.

فما بين "الخَلق" -بفتح الخاء- و"الخُلُق" -بضم الخاء واللام- ليس بتماثل في البناء الحرفي فحسب، بل هو تماثل في الدلالات المعنوية كذلك يكاد يبلغ حدَّ التطابق.

فـ"الخَلْقُ" الكوني مُنزهٌ عن أي فعل عشوائي وعبثي غير محسوب أو موزون بموازين الهندسة الجمالية الكونية كما رسمتْها يد القدرة، وإلاَّ انهار البناء الكوني برمته وأصبح أثرًا بعد عين.

وبالمقابل فالكيان "الخُلُقي" عند الإنسان معرض لمثل هذا الانهيار عند أي انحراف أو انفلات من موازين الجمالية الوجدانية في التصرف والسلوك، بل إنَّ أيّة حضارة وأيَّ دين يمكن أن يفقدا أكبر مقوماتهما عندما تجف فيهما ينابيع أخلاقياتهما.

٢- أعظم معجزات محمد ﷺ

ومن هنا كانت أعظم معجزات محمد ﷺ -بعد القرآن- هو صرحه الخُلُقي المتين والمحكم الذي أجبر أعداءه على الوقوف إزاءه مذهولين مستسلمين، فعندما خاطب جمعهم قائلاً: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟!»[٨٧]، قالوا: "نعم ما كذبتنا قطُّ".

و"نعم" هذه كانت شهادة بيّنة على إيمان ألسنتهم قبل أن تؤمن أفئدتهم.

لقد أَوقع هدوءُه الخُلقي النقي الواثق الاضطراب في صفوف مناوئيه، فلم يعودوا قادرين على الخلوص إلى رأي واحد في شأنه ﷺ.

فسلوكه -عليه الصلاة والسلام- مرآة في غاية الصفاء تعكس على الأنام ومضات من خُلُق القرآن كما وصفته زوجه عائشة رضي الله عنها: «فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ»[٨٨]، ولأنَّ خلقه القرآن أثنى عليه منزل

---

[٨٧] رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن، رقم الحديث: ٤٥٨٩؛ ومسلم في كتاب الإيمان، رقم الحديث: ٣٠٧؛ وأحمد بن حنبل في مسنده، في مسند بني هاشم، رقم الحديث: ٢٦٦٤.

[٨٨] رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، رقم الحديث: ١٢٣٣؛ والترمذي في كتاب البر والصلة عن رسول الله، رقم الحديث: ١٩٣٩؛ والنسائي في كتاب قيام الليل وتطوع النهار، رقم الحديث: ١٥٨٣؛ وأبو داود في كتاب الصلاة، رقم الحديث: ١١٤٤؛ وابن ماجه في كتاب الأحكام، رقم الحديث: ٢٣٢٤؛ وأحمد بن حنبل في مسنده، في باقي مسند الأنصار، رقم الحديث: ٢٣١٣٤.

القرآن جل جلاله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القَلَم:٤).

٣- المسلم والأمن الكوني

والقرآن مرآة الكون -كما يكثر النورسي من التوكيد عليه- يرى فيه وجوده بسعته وعمقه ومهول أزمانه، وسحيق مسافاته.. وبالمقابل فالقرآن يرى في الكون عظمة الخَلْق، وحكمة الإيجاد، وهندسة الصنعة الإلهية، ودقة الإحكام، وامتدادات العلم والقدرة والإرادة في الأشياء والموجودات.

والمسلم مَدْعُوٌّ إلى أن يسبر غور الجمال في خُلُقِ القرآن وفي خُلُقِ الكون.. ففي هذين الغورين يلتقي جوهر فطرته النقية المدركة المشعة لكي يعتمدها في بناء أسس أخلاقياته المعبّرة بالتالي عن التلاحم المصيري بين الإنساني والكوني والقرآني.

وهذا التلاحم الثلاثي الأطراف هو الذي يؤكد عليه النورسي في رسائله، ويكاد يكون المنطلق الذي تنطلق منه معظم أفكاره، ومنها تنجم "أخلاقيات رسائل النور" التي تؤهلها لتبوء مركز الصدارة في المسؤولية عن أمان العالم وإيمانه. وأيُّ محاولة للتعامل مع "الإنسان" بمعزل عن علاقاته المتشابكة مع الكون ومع خالق الكون ستبقى سطحية لا تلامس إلاَّ الظاهر الشكلي من كيانه.. بينما يظلُّ نازعه الإلهي والكوني غائصين في القاع دون أن يُدْعَيا للمساهمة في بناء صرحه الأخلاقي المنشود.

فالمسلم ملتزم إذن بأخلاقية الحفاظ على "الأمن الكوني" العام، فضلاً عن التزامه بأمن كرة الأرض، فيتصرف تَصَرُّف المرابط على ثغر من ثغوره يمكن أن يُؤتَى الكون من قبله في كل وقت.. فهو يحذر من أن يكون سببًا

في تصدّع بنْيانه أو قيام قيامته، لأنه مؤمن بأنَّ قيامة العالم لا تقوم إلاَّ على شرار النَّاس كما ورد في الحديث الشريف، ولا تأزف ساعته إلاَّ إذا آذَنَتْ شمس أخلاقيات الإنسان بالغروب وانحدرتْ نحو الزوال.

ولأهمية هذه الجمالية الأخلاقية التي نيط بها أَمْنُ الأرض والسماء، أكّدها الرسول ﷺ وجعلها غاية رسالته بقوله: «إنّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاقِ»[٨٩]، ولتعزيز هذه المهمة وتوكيدها أكرمه تعالى بصفتين من صفاته الحسنى: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(التّوْبة:١٢٨).

فجمال "الخُلُقِ" لدى الإنسان يناظر جمال "الخَلقِ" في الكون، ويشاكله في العمق والسعة، ويضاهيه في الدلالة على الخَلقِ والخالق، وهو توْأمه يحييان معًا، ويموتان معًا، وتقوم قيامتهما معًا.

فالأدمغة الكبيرة التي تريد أنْ تمارس لعبة التفكير من دون ضوابط أخلاقية، وبالقفز من فوق حاجزَي الخير والشر لا ينبغي أن يُمنحوا فرصة الإمساك بزمام العالم، وإلاَّ أفرغوه من معناه الإلهي، وقادوه نحو مأساوية هلاكه على أيديهم ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾(الإِسْرَاءِ:١٦).. ومهما يكن صوت الضمير ضعيفًا وخافتًا عندهم إلاَّ أنه موجود ولا يمكن خنقه إلى الأبد.

والإنسان سجين زمانه ومكانه مَدْعُوٌّ في هذا العصر -أكثر من أي عصر آخر- إلى إحداث ثورة أخلاقية تتجاوز سجْنَيه، وترتفع به فوقهما، لتكون تعبيرًا عن إرادة الله فيما ينبغي أن يكون عليه من الطهر والقداسة. ولكون الإنسان مخلوقًا معقّدًا فهو يتطلب الكثير من الانتباه من قبل الأخلاقيين،

---

[٨٩] رواه أحمد بن حنبل في باقي مسند المكثرين، رقم الحديث: ٨٥٩٥.

ومن أوجب واجباتهم إعانته على تجاوز محنته، وجعله أكثر إحساسًا بمسؤولياته الأخلاقية إزاء نفسه، وإزاء العالم، وإزاء الله تعالى.. وهذه هي المهمة التي كرّست لها رسائل النور نفسها في هذا العصر.

إنَّ "الضمير" هو الكابوس الذي يحاول أشرار العالم أن يستيقظوا منه، ويرغبوا بالعيش وكأنهم لا يعرفونه أو يَمُتُّون إليه بأية صلة، فيقيسوا أفعالهم بمقاييس مختلفة عن مقاييس الضمير وقواعده. إن اغتباطهم بانتصاراتهم اغتباط وحشيٌّ ذو أنياب ومخالب تقطر دما، وهم ينفون عن الكون أية أخلاقيات إلهية تحكمه، فاستطابوا الاستغراق في الجانب الأضعف من النفس الإنسانية، ولا يريدون أن يناضلوا للانتقال إلى الجانب الأقوى والأفضل منها كما يفعل الأخلاقيون دائمًا.

٤- الضمير والمسؤولية الأخلاقية

وأُولى المسؤوليات الأخلاقية التي عرفها "جنس الإنسان" ممثلاً في أبويه "آدم وزوجه" عليهما السلام، عندما قيل لهما: دونكما أشجار الجنَّة سِيمَا فيها حيث شئتما، وَكُلا من أيّها شئتما رغدًا، إلاَّ هذه الشجرة فلا تقرباها.

كان الضمير البشري بكرًا معطَّلاً، لم يدخل بوتقة التجربة بعد، أو يعرف معنى النَّدم، فكان لا بدّ من تحريكه واستنهاضه من رقاده قبل الهبوط إلى الأرض وابتلائه بخيرها وشرّها، وتقلبه فيما بينهما.

فغدا هذا "الضمير" على الأرض مسرحًا تُمَثَّل عليه تراجيديا الإنسان" وأعقد صراعاته مع نفسه، ومع العالم، ومع الفطرة الإلهية في داخله.. وأصبح واحدًا من أكثر مشاكل الإنسانية تعقيدًا، وأجدرها باهتمام

الباحثين من جميع رجال الفكر والدعوة.. فصلاح العالم كله مرتبط به، وقيام الحضارات وسقوطها منوط به، وإنَّ الحياة كلَّها لا يمكن أن يكون لها معنى من دونه..

فهو المحرك الأقوى لطاقات الإنسان الخلاَّقة، ولجعل الحياة شيئًا جديرًا بأن يتقبَّله الإنسان ويُقْبِل عليه..

وهو النور الأكثر ضياءً والأوضح إشارة إلى وجود الله تعالى، وهيمنته على ظاهر الإنسان وباطنه، وعلى هويته وماهيته..

وهو القدحة البارقة التي يبصر الإنسان من خلالها آلام أخطائه، وأوجاع خطيئاته..

وهو ثورة ضدَّ منطق الشرّ، ومبررات الخطيئة.

٥- حرية الاختيار

فالخُلُق الكوني يتطابق مع الخُلُق الإنساني من حيث الهندسة الجمالية التي تسري في مفاصل كليهما، غير أنَّ حرية الاختيار التي أُتيحت للإنسان من دون الكون، سهلت له فرصة الانفلات من ضوابط هذه الجمالية، والانقلاب عليها، وربما هَدْمها بالكامل.. وبسبب هذه الإنفلاتات غير المسؤولة غدا العالم اليوم أكثر إرعابًا من أي وقت مضى، وأكثر ابتعادًا عَمَّا ورثه الإنسان من جماليات الأديان في السلوك والاعتقاد.. لذا فقد بات من أقدس مهمّات الطلائع الأخلاقية من جميع الأديان دعوة البشرية إلى المزيد من الصمود تجاه هذا الطوفان اللاّأخلاقي الذي يوشك أن يكتم أنفاس العالم.

وما نتحسب له أن تنحسر روح المقاومة أمام جحافل اللاَّأخلاقية

المرعبة، وتعلن السقوط والاستسلام.. وبذلك نكون قد دفعنا العالم -دون أن نشعر- إلى المزيد من الاقتراب من نهايته.

إنَّ العالم اليوم مرعوب إلى حد الموت، يتنفس الرعب في كل مكان، ويتوقع نوازل إنسانية في كل طرفة عين، وبات الجيل الجديد من الشباب قلقين، لا يعرفون ماذا يفعلون بحياتهم، وكيف يُصَرِّفُونَها، وإلى أي جهة يتوجهون بها، بل حتى وجودهم كإنسانيين صار موضع نظر، وغدا عبئًا ثقيلاً، وعذابًا لا يحتمل. لا يعرفون كيف يتخلصون منه، ويزيحون أثقاله عن كواهلهم، وسبب ذلك يعود إلى ما يعانونه من انخفاض مخيف في الحسِّ الأخلاقي، ومن ضبابية كونية معْتمة في مرايا أحاسيسهم، ومن صور شوهاء عن الألوهية والربوبية في مرايا وجدانهم.. فكل هذه الأمور جعلتهم يشعرون بالدونية وبالتفاهة، وبكونهم ليسوا بأكثر من فقاعات طافية فوق مجرى الزمن، لا امتداد لهم في العالم، ولا جذور قوية تشدُّهم إليه، لا كونية لرسالاتهم، ولا إلهية لأهدافهم، ولا جمالية أخلاقية تجمع شتاتهم، وتوحد ذاتهم، وترسم أهدافهم.. وهذا هو الداء العضال الذي تشكو منه الحياة الروحية التي يحياها الجيل الحاضر.

٦- وحدة الكون والإنسان

وعلى الإنسان أن يرقى سلوكيًّا ليرى نفسه في الكون، ويرى الكون في نفسه، وليرى أصداء أعماله سارية في جنبات العالم، محدثةً فيه هِزَّة طَرَبٍ، أو هِزَّة حُزنٍ، فما بين الكون والإنسان أخذٌ وعطاء، فعل وانفعال، شريعة إلهية تضبط سلوكيات الإنسان، وشريعة إلهية تضبط سلوكيات

الكون.[٩٠]

والإنسان ملزمٌ أن يراعي استحقاقات الشريعتين معًا، وأن يزن نفسه بميزانهما، توحد يكاد يكون تامّا، ففي الوقت الذي تتفتح أبواب السماء لاستقبال ما يصعد إليها من خير الإنسان[٩١] فهي تفزع وتنغلق دون ما يقترفه من شرور. والسماء والأرض تبكيان للأقوام الذين يطويهم الموت ويطوي خيرهم معهم، وتتنفسان الصعداء لانقضاء آجال أقوام امتلأت الدنيا بشرورهم كما تشير الآية ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾(الدُّخَان:٢٩). يقول النورسي:

إنَّ "المستشفيات والسجون والخمارات والمقابر تسمعنا أنَّاتٍ وآهاتٍ وتغرقنا بالدموع، وتملأ الأجواء بأصوات الأسى والأسف من جيل التيه والضياع الذي يزدحم بهم العالم"[٩٢].

٧- الخُلُق الإنساني في مجمل "رسائل النور"

ويمكننا أن نجمل مفهوم "الخُلقِ الإنساني" عند النورسي -ومن خلال قراءة متأنية لرسائل النور- بالآتي:

- إنه طاقة جمالية مشعة تندرج ضمن المنظومة الجمالية للوجود،
- أو هو نازع روحي يأتي من مكان بعيد من الروح،
- أو هو إحساس ملح بضرورة المشاركة في كفاح الإنسانية من أجل إيقاف تدهور العالم وانحلاله وجعله أكثر حكمة وعقلانية،

---

[٩٠] انظر: الكلمات (اللوامع)، سعيد النورسي، ص:٨٧١-٨٧٢.

[٩١] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾(فَاطِر:١٠)

[٩٢] الشعاعات، سعيد النورسي، ص:٢٥٥-٢٥٦، مع شيء قليل من التصرف.

• وهو في أحواله كلها محاولة دؤوب للحفاظ على الصحة الروحية عندما نوشك أن نفقدها،

• وهو كذلك رؤية مضيئة لتلمس الطريق إلى الهدف الإلهي من خلق الإنسان والعالم،

• وهو بالتالي عملية ارتقائية بالإنسان لجعله أكثر رهافةً وأشدَّ شفافيةً..

وبسرِّ الوحدانية الجمالية التي تنظم كل شيء في هذا الوجود، فإن نجمًا بعيدًا في السماء يمكن أن يتألم لزهرة عندما تطأها قدم غشوم فوق أديم الأرض.

فالخلال الحميدة التي يتعامل بها المسلم مع مجتمعه لا يمكن أن تكون بمعزل عن الجمالية الكونية، لأنه هو نفسه جزء من هذا الكون.

إنَّ "جمال الخُلق" لا كفاء له إلا نفسه، فيكفيه أن يكون لبنة في صرح الجمال الكوني، وكأيِّ جمال في هذا العالم يبقى مرآة يرى "الجمال القدسي" فيها انعكاسًا لصورته كما يشير النورْسي.. والجمال إنما هو صور ومرايا يتراءى بعضها في مرآة بعض، ومن خلاله يستطيع الإنسان أن يرى مصداق رؤياه الإيمانية في جمالية أخروية وراء هذا العالم.

ومن هذا السرّ يربأ المخلصون من العُبَّاد بأنفسهم عن ابتغاء أجرٍ لعبوديتهم خارج جمال العبودية نفسها اقْتداءً بالرسول ﷺ «أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»[٩٣] عندما سئل عن اجتهاده بالعبادة وقد غفر له ما تقدم من ذنبه

---

[٩٣] رواه البخاري في كتاب الجمعة، رقم الحديث: ١٠٦٢؛ ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم الحديث: ٥٠٤٤ ؛ والترمذي في كتاب الصلاة، رقم الحديث: ٣٧٧؛ والنسائي في كتاب قيام الليل وتطوع النهار، رقم الحديث: ١٦٢٦؛ وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، رقم الحديث: ١٤٠٩؛ وأحمد بن حنبل في مسنده، في أول مسند

وما تأخّر، فأجر العبودية وعلّتها -عند هؤلاء العبَّاد- هي العبودية نفسها، وليس بخوف من النار أو طمع في الجنة كما ورد ذلك على لسان العابدة رابعة العدوية.

٨- خُلُقُ الأقوياء

و"الخُلُق" الذي يريد النورسي ابتعاثه من جديد في نفس المسلم ليس بِخُلُقِ الضعفاء والمنسحقين تحت ضغوط نفسية أو اجتماعية، أو خُلُقٍ يأتيه المرء مكرهًا لأنه لا خيار له سواه، بل هو خلُق النفس القوية والسوية المفعمة بالشرف، واللائقة بنبل الإيمان، وعظمة الانتساب، فيأتيه المسلم بشموخ تحت أعين الكون المُحَدِّقة بلا حَرَجٍ ولا وَجَلٍ، ولا شعور بالذنب؛ لأنَّ الإيمان إذا استولى على الروح لم يعد هناك ثغرة يمكن أن يتسلَّلَ منها العار إلى نفسه.

والنورسي لا يرى شيئًا أفجع للمسلم، وأشدَّ سحقًا له من ركونه إلى الخوف والضعف والعجز في دينه ودنياه، لأن ذلك ممَّا لا يليق بِعِزّة الإيمان الذي ينتسب إليه، فيقول:

" أيها الخائف الضعيف! إنَّ خوفك وضعفك يذهبان سُدًى، لا طائل وراءهما، بل يكونان عليك لا لك، لأنهما يشجعان الآخرين ويثيران شهيّتهم لافتراسك"[٩٤].

وخير للمسلم أنْ يهلك وهو في عنفوان سجاياه من أن يضعف ويجره ضعفه إلى مستنقع الذلّ والهوان والانسحاق الشائن، وليكن في الحق

الكوفيين، رقم الحديث: ١٧٥٣٢.

[٩٤] الكلمات (اللوامع)، سعيد النورسي، ص:٨٦٢.

صِنْوَ الشجعان لا صِنْوَ الخوارين، وإنَّ استحضاره لرجولة الإيمان في مواقف التحديات هو المرجو منه دائمًا.

والنورسي نفسه يضرب مثلاً رائدًا على تلك الرجولة وهو في الأسر عند الروس حين يأبى الوقوف ذليلاً أما خال القيصر والقائد العام لجبهة القفقاس حتى كاد يفقد حياته، وكان جوابه عندما سُئل "لماذا لم تقم له"، أجاب:

"إنني عالِمٌ مسلمٌ أحمل في قلبي الإيمان، فالذي يحمل الإيمان في قلبه أفضل مِمَّنْ لا يحمله. فلو أنني قد قمتُ له احترامًا لكنت إذن قليل الاحترام لعقيدتي. ولهذا لم أقم له"[٩٥].

فلا شيء أشدُّ إيلامًا من منظر مسلم محطّم الشجاعة، محنيّ الصُّلبِ تحت أثقال آلامه، يهوي من سماء عظمته كالكوكب الوهاج فلا يلبث وهجه حتى ينطفئ مخلفًا في الناظرين الكثير من الأسف والألم.

٩- فاعلية "الطاقة الأخلاقية" عند المسلم

وليس "جمال الخلُق" عند المسلم شيئًا سلبيًّا مُعَطِّلاً عن التأثر بالأشياء أو التأثير بها.. فكما أن الجمال الكوني لا يمنع الطبيعة من الغضب أحيانًا، ولا يمنع السماء من أن تزمجر، ولا البحر من أن يهيج، ولا الأرض من أن تتزلزل، كذلك "جمال الخُلُق" عند المسلم لا يمنعه من الغضب للحق وفي الحق، ولا يمنعه من أن يخاصم، ولكن في حدود العدل.. وقد يضطر أحيانًا إلى أن يخوض الحروب، ولكن لا يقتل طفلاً ولا شيخًا ولا امرأة ولا راهبًا ولا ناسكًا، ولا يعضد شجرة ولا يهدم بيتًا.

---

[٩٥] سيرة ذاتية، سعيد النورسي، ص:١٣٠.

فما يبدو على الكونيات من حولنا ومن فوقنا وكأنها تتجاوز سلوكياتها الجمالية في أمثال هذه الوقائع، هو -في الحقيقة- من صميم جمالياتها. لأنها تفعل ذلك إمَّا تجديدًا لما وَهَنَ من قوتها، أو استعراضًا لجبروتها، أو تنفيسًا عما يجيش في صدرها من قدرات وطاقات، أو إنذارًا لصديقها الإنسان، أو تنبيهًا له. أو سخطًا عليه.

وهذه الأغراض كلها مما يزيد في تعميق اللوحة الكونية كلما شحبت أو نصلت ألوانها، وكلما بهت عقلنا، وشحب إدراكنا لما خفي علينا من جماليات الأبدية، لأننا نكون أقدر على إدراك الجمال الأقدس، وطمأنينية الأبد، عندما نكون أكثر ارتعابًا وأشد خوفًا وقلقًا، فتظلُّ الطاقة الأخلاقية عند المسلم على أشُدِّها من الرهافة والتأثر بجماليات الروح وجماليات الكون، وهو ميزان سلوكي لا إفراط فيه ولا تفريط.

وعند النورسي إنَّ "الخُلُق الحسن" جمالية سلوكية تعكس إرادة الله في رؤيته للإنسان -مخلوقه ومصنوعه- وهو في تصعيد دائم في سلّم الارتقاء السلوكي الذي يراد منه الكفاح من أجل اعتلائه إلى آخر درجة فيه قبل أن تَطْهُرَ روحُهُ، ويتقدس عقْلُهُ ليصبح بعد ذلك جديرًا بأن يكون واحدًا من المؤتمنين على أمن العالم الأخلاقي.

وإذا كانت الأخلاقية الإسلامية اليوم مجهولة -إلى حد ما- عن أنظار العالم، إلاَّ إنها جديرة إذا ما أتيح للمسلم أنْ يمارس قيمه الأخلاقية بحرّية ومن غير منازع أن تجذب إليها الأنظار.. فالعالم اليوم في حاجة إلى أن يجد نموذجًا للشخصية القوية المتينة البناء بحيث لا تستطيع الأهواء أن تخترقه، ولن يحظى بمثل هذه الشخصية إلاَّ في كيان المسلم، لأن "التخلق بالأخلاق الإلهية، أي التحلّي بالسجايا السامية والخصال

الحميدة التي يأمر بها الله سبحانه وتعالى"[٩٦] هي الشخصية المطلوبة في هذا العصر.. فالتخلق بأخلاق الله -كما يقول النورسي- قمينٌ بأفئدة عظماء الرجال، أصحاب النفوس الأصفى، والصدق الأنقى، وبقدْر ما يكون عند الإنسان من هذا الخلق يكون ما لديه من حياة تأتلف فيها الطبيعة والفضيلة، وهو الوجود الحقيقي الذي يستبعد أي نوع من أنواع الشر الذي كله موات وعدم، كما يقول النورسي.. أما الخير فهو الحقيقة المطلقة التي ترتقي بالإنسان إلى المطلق الإلهي الذي هو غاية كلّ مَنْ يؤمن بالله واليوم الآخر.

---

[٩٦] الكلمات، سعيد النورسي، ص:٦٤٢.

على مشارف النفس في المثنوي العربي النوري

لا جدال في أنّ "النفس البشرية" طاقة عظمى من طاقات البناء والإعمار، ومصدر خصب من مصادر الحق والعدل والخير والجمال في هذا العالم إذا ما زكتْ وصفتْ وغدت موصولة الأسباب بفاطرها ومُوجدها.. لأن صلتها بالله، واستمساكها بأسباب أنواره، يجعلها موضع نظره.. ومَنْ كَان موضع نظر الله تعالى أُفيضَ عليه من صفات جماله وكماله ما يستطيع بها أن يمحق ظلام الدنيا وشرورها.. وهي -أي النفس- قوة تدميرية عمياء، وطاقة هدم مرعبة، إذا ما نجمت فيها جرثومة التمرّد والنزق والجموح، وعصفت بها رياح الهوى الهوج المحرّكة لنيران رغباتها المجنونة، وشهواتها العارمة، فتحرق هذه النار كل سبب يصلها بالله تعالى، فلا تلبث -بعد ذلك- أن تتنكر لخالقها وبارئها، وتنزع إلى عصيانه، وترغب في الانفلات من مسؤوليات الإيمان، وتكاليف الإسلام.

والنورسي -رحمه الله- إنما يرصد هذه النفس الضالة التي قد غلبت عليها رعونتها، وركبتها حماقتها، فتنشط في البحث عمّن يسليها ويلهيها، وينسيها مَنْ تكون، ولِمَ كانت، وما واجبها، وما مسؤولياتها..؟ ويأسف لها وهي تتصامم عمّن يريد لها الصحو المسؤول، واليقظة البصيرة، ويطلب لها التعلم والمعرفة، ويأخذ بيدها للارتقاء والسموّ، ويشرّفها بمعرفة الله ويتوّجها بتاج طاعته، ويلبسها حلل معرفته.. ويرى أنها -إذا زاد ارتكاسها وفاض بها غرورها- قد تتوهّم نفسها قطب العالم ومحور الوجود، فتقيس كل شيء بمقاييسها، وتزنه بموازينها، لظنّها أنها منبع كلّ حق، ومصدر كل صواب.. وقد تتمادى في هذا الغرور الأحمق حتى لتنازع "الرّبوبية"

سلطانها، وتنسب لنفسها من صفات الألوهيه ما تشاء ويشاء لها الهوى.

وتتفاوت "النفوس" في أسباب تعرضها لمخاطر هذا التورم الخبيث، والانتفاخ المرضي المخيف، فيغدو البعض أشدّ عتوًّا، وأصعب توعرًا، وأكثر استعصاءً وتمردًا على حقوق الربوبية، ومستلزمات العبودية من البعض الآخر. وبسبب هذا التورّم الذي يتسلل إلى مخ النفس، فيشلّ وعْيها، ويفقدها صوابها، ويُعمّي عليها حقيقة حجمها، وتبيان موقعها الصحيح من الله.. وبسبب غياب "العقل الإيماني" الذي يبصرها بحقيقتها، ويمنعها من الجموح والشطط، فهي غالبًا ما تنساق مع الوهم، فتتخيل استطالة حجمها، وتضخم جرمها، وتحسب الكون قاصرًا عن احتوائها، والأرض عاجزةً عن حمل عظمتها.. ومن هنا -من عدم تحديد مكان "النفس" من الله، ومن تجاوزها حدود وظائفها في هذا العالم- تنجم جميع شرور العالم وآثامه، وتنبعث جميع آلامه وأحزانه ومآسيه.. ومصداق ذلك ما يحدثنا به التاريخ من مدّعي "الألوهية" و"الربوبية" من الملوك والأباطرة والفراعين وغيرهم على اختلاف مدّعياتهم الباطلة، وما خلفوه وراءهم من جروح وآلام في حياة الشعوب والحضارات.

وخشية من وقوع "النفوس" فريسة هذا التورم البشع المخيف، وحرصًا من "الإسلام" على أن تظل "نفس" المسلم صحيحة تستمتع بالسلامة والعافية، فقد حثّ القرآن على مجاهدة نزق النفس، وحذّر من تمرّدها وعصيانها لخالقها، واعتبر مجاهدتها واجبًا إيمانيًا لا يقل أهميّةً عن واجب مجاهدة العدو، بل يزيد عليه، لأن العدو الذي يريد الشَّر بالبلاد والعباد بيّنٌ ظاهر للعيان بسلاحه وعدّته وعدده، نواجهه ونحن نرى ونسمع، فيجتمع عليه كياننا كله، وتتهافت عليه حواسُّنا جميعًا، وتتعاون

على قهره طاقاتُنا بأسرها.

أما "النفس العاصية لله" فهي عدو خفي لا نراه ولا نحس بعداوته، لأنها تسري في وجودنا كله، وتجري منا مجرى الدم.. ولا يجتمع عليه وجودنا كله لأنها جزء من هذا الوجود، فضلاً عن أننا لا نعرف متى تهاجمنا، ومن أي ثغرة تتسلل إلى مقاتلنا، وأيّ سلاح رهيب من أسلحتها تجربه فينا..؟ لذا يتعيّن علينا أن نبقى حذرين دائمي الحذر، متيقظّين دائمي التيقّظ، نرصد حركاتها، ونراقب مناوراتها، ونأخذ منها زمام المبادرة، فنلجمها قبل أن تجمح بنا، ونأخذ بخطامها قبل أن تهيج علينا وتلقي بنا تحت أقدام طغيانها فلا تُفْلتنا حتى تسحق منّا الروح والقلب والعقل.

* * *

وقد عانى النورسي من نفسه الشيء الكثير، فهي نفس جموح، وعرة المراس، صعبة الترويض، عصية على الاقتناع.. تأبى أن تسلس له القياد ما لم يأتها على الرأي الذي يراه بالدليل القاطع لكل شك، والبرهان المبدّد لكل ريب. لذا فقد كان همّه الأعظم إقناعها بالرأي الذي يراه، والفكر الذي يخلص إليه.. فهو في كل ما كتب ولاسيما في "المثنوي" إنما كان يكتب لنفسه بهذا القصد ولهذا الغرض، وكأنّ نفسه -لشدة جموحها ونفورها من الفكر التقليدي- قد آثرت الانفصال عنه، والانسلاخ منه، فصار لها كيان مستقل، وشخصية مناوئة، تقف إزاءه، وترصد فكره، ولا تنفك تحاوره وتلحّ عليه في الحوار، وتسأله وتلح عليه في السؤال، حتى تضطره للإجابة عليها بحشد هائل من الأدلّة والبراهين التي تقنعها وتطمئنها، وتلزمها الحجة والتسليم. وفي معرض وصفه لهذه المعاناة مع نفسه يقول النورسي:

"إن هذه ثلاثون سنة لي مجادلة مع طاغوتين وهما :"أنا" في الإنسان، و"الطبيعة" في العالم"[٩٧].

والمأساة الأخرى التي ظلّتْ تؤرّق النورسي طوال حياته، وتنغر في ضميره، إنما هي سقوط الملايين من البشر في هذا العصر في حبائل "الطبيعة" وانحباس أرواحهم في أقفاصها، وتعبّدهم -كما يتعبد الوثنيّون- لنواميسها وسننها.. فنسبوا لهذه النواميس والسنن ما ينْسبه المؤمنون إلى الله تعالى من صفات الخلق والإيجاد والقدرة والعلم والحكمة والقصد والاختيار.. وبذلك حجبت "الطبيعة" المخلوقة، بصفاتها الاعتبارية غير الذاتية، الإنسان الوثني عن "الخالق" الحقِّ، وامتصّت إيمانه، وأنشبت أظفار الجحود الحاد في روحه، وحوّلت قلبه الخصب إلى جفاف كجفاف رمال الصحراء، فاستُثني -بهذا الانحراف الأخرق عن الله- استثناءً شاذًّا من بين التوافق الكوني العظيم الذي تندرج الأشياء جميعًا فيه، وتتآلف معه في وحدة كونية نابضة بالمعرفة والمحبّة لله، فإذا به -على الرغم من كل منجزاته الحضارية المبهجة- ينوح نوحًا مريرًا على شقائه الروحي كنواح النغم الحزين المنفرد بحزنه من بين منظومة اللحن الضاحك البهيج.

وكما حاور النورسي جموح النفس، وناقش نزقها وتمرّدها، وردّ على اعتراضاتها حتى راضت وقنعت واطمأنّت، فإنه كذلك ناقش المؤلّهين للطبيعة، واستعرض مقولاتهم، ثم ردّ عليها واحدةً تلو الأخرى، وخلص في خاتمة المطاف إلى خطل رأي مَنْ ينسب إليها الحياة والخلق والإيجاد من دون الله تعالى.

---

[٩٧] رسالة "حبة من نواتات ثمرة من ثمرات جنان القرآن".

ولما كانت "نفسه" دائمة الحضور معه، قائمة بين جنبيه، تناقش فكره الإيماني وجهًا لوجه، وتلقي باعتراضاتها حوله، لذا فإنّ النورسي كتب ما كتب بقصد ترويض هذه النفس الجموح الثائرة على كل فكر تقليدي، وبنية تبديد شكوكها، وقهر عنادها، وإقناعها بصحة أفكاره، ومصداقية قناعاته.

ومن هنا فليس غريبًا أن يكتنف بعض أفكاره في "المثنوي" شيء من الغموض غير المقصود، لأنه لم يكن مقصودًا من كتاباته سوى نفسه، فلربّما كفاه السطر والسطران لتفهم عنه نفسُه، وتعرف مراده، ولا تكفيه الصفحة والصفحتان ليفهم عنه القارئ بعض مراده.[٩٨]

ومن حق القارئ الذي يقرأ هذا الكلام أن يسأل نفسه: "إذا كان مقصود النورسي فيما كتب في هذا الكتاب "نَفْسَهُ"، فما جدوى نشره، وإغراء الآخرين بقراءته؟ وهو لم يُكْتَبْ لهم أصلاً، ولم يُصنّف لأجلهم؟

وللجواب على هذا السؤال نقول:

إن "النفس الإنسانية" هي واحدة في جوهرها، وواحدة في أسباب صحتها ومرضها، كالجسد تمامًا، فإذا كانت الأمراض التي يمكن أن تصيب جسد "زيد" هي نفسها التي يمكن أن تصيب جسد "عمرو".. وإن ما يفيد "زيدًا" من دواء، يفيد "عمروًا" أيضًا.. فكذلك فإن أمراض "النفس" هي واحدة لدى جميع البشر مع بعض الفروقات بين نفس ونفس. فالعلاج الذي استعمله النورسي لنفسه قد يفيد أي إنسان آخر يعاني ما كان يعانيه النورسي من نفسه، وهو يقول بهذا الصدد:

---

[٩٨] انظر: إفادة مرام رسالة "شمة" و"نقطة".

"ولا تخف من تمرّد النفس، لأن نفسي الأمارة المتمرّدة المتجبرة انْقادتْ، وذللتْ تحت سطوة ما في هذه الرسالة من الحقائق، بل شيطاني الرجيم أفحم وأنخنس.. كن مَنْ شئت، فلا نفسُك أطغى وأعصى من نفسي، ولا شيطانُك أغوى وأشقى من شيطاني"[٩٩].

فضلا عن التجارب الذاتية التي تخوضها النفوس العظيمة، هي رصيد جديد يضاف إلى رصيد الإنسانية ويثري معرفتها بشؤون الروح والوجدان، ويمنح أفرادها ما يفيد في اجتياز قلقهم الروحي بنجاح، وتخطّي عواصف شكوكهم بسلام.. وقد اعتاد البشر -منذ أقدم العصور- أن يفيد بعضهم من تجارب البعض الآخر، ولولا هذه السنّة الحسَنة التي درج عليها الناس لَما وصلت البشرية إلى هذا الصرح الهائل العظيم من المعارف والعلوم والأفكار.

ونكاد نلمس بين سطور "المثنوي" غبار الصراع الدؤوب الذي خاضه النورسي بشجاعته ضد تمرّدات نفسه وجنوحاتها قبل أن تسلس له القياد، وتسلّم له الزمام، حتى إننا لنتعاطف معه، ونأسى من أجله ونحن ننظر بعين الخيال إلى ما عاناه هذا الرجل من عذاب قبل أن يحقق انتصاره النهائي على الجانب المستعصي من نفسه.

وما من أحد من المؤمنين إلاّ وله مع نفسه العصية مواقف أو بعض مواقف -كالتي كانت للنورسي مع نفسه- مع اختلاف درجات التوتر والقلق والصراع ضعفًا وقوةً، وقلة وكثرةً، في الأشخاص، تبعًا لدرجات

---

[٩٩] تنبيه، إخطار، اعتذار.

إيمانهم ويقينهم.. لذا فما من أحد إلاّ وله في تجربة النورسي ما يفيده بدرجة أو بأخرى.. وإذا ما فاتنا النزر اليسير من علاجات النورسي لنفسه، بسبب بعض الغموض في بعض وصفاته، إلاّ أننا سنفيد -بلا ريب- من الشيء الكثير منها، وكما يقول:

"لا تقلْ: إذا لم أدرِ الكلّ لا أريد الكلّ.. فإذا كنت في بستان أتترْك الثمرات إن لم تأكل كلها"[١٠٠]

فَرُبّ زهرة تقطفها من حديقة "المثنوي" تغنيك بشذاها وجمالها عن عشرات الأزهار، ورُبّ فاكهة تنالها يدك تعطيك مذاق مائة فاكهة وفاكهة.

فـ"المثنوي" كتاب فريد في مصداقيّته، قد سجّل فيه النورسي بأمانة وعفوية وصدْق سيرة نفسه وما كان يعتورها من قلَق واطْمئنان، وينتابها من صحّة وسقام، ويتناوشها من شك ويقين، من دون زيادة أو نقصان.. حتى إنه ليترك نفسه تنساب -على سجيتها- مع انسياب قلمه، فلا يُجري على كلامه في بداهته الأولى أيّ تبديل أو تعديل، حفاظًا على براءة عفويته، وخوفًا من أن يدخل على كلامه ما يخدش صدقه، ويمسُّ بكارة معانيه.[١٠١]

وما يتكرر في أول كل خاطرة من خواطر "المثنوي" من "اعْلمْ" فالمقصود: "اعْلمْ يا سعيد". أو "اعْلمي"، فالمقصود: "اعْلمي يا نَفْسي".. فبسرّ قوة الصدق الذي يشيع في ثنايا الكتاب -لأنه ليس بعد الصدق مع النفس من صدق- وبسرّ قوة الروح المسكوب في كلماته -لأنه ليس من روح أقوى من روح عجنته المعاناة، وأنضجتْه نار التجربة- يمكن

---

[١٠٠] إفادة مرام "شمة من نسيم هداية القرآن".

[١٠١] انظر إفادات المرام ولا سيما إفادة مرام "حبة".

لأي إنسان الإفادة من تجربة هذا الكتاب في ترويض نفسه، والتحرر من رهقها، وكذلك تنقية مداركه العقلية من مفاهيمها الخاطئة عن ربوبية "الطبيعة" و"أُلوهية" ماديتها. فبانْهدام هذين الوثنين النفس والطبيعة وتحرر الإنسان من طغيان سطوتهما عليه، ينفسح له المجال واسعًا لميلاد ذاته الحرة من جديد، وانتفاضها من بين أنقاض عالمه المتهدم مفعمةً بالعافية، طافحةً بالحيوية، فلا تلبث حتى تسرع في استرداد وعْيها الأعمّ الأشمل، وإدراكها الأصحّ الأصوب، فترى -بصفاء نظرها وسريرتها- أنّ كل موجود -بحد ذاته- حرفٌ ضائع لا معنى له ما لم يعطه اسم "الله" الأعظم معناه بالانتساب إليه، ويسبغ عليه مغزاه على قدر ارتباطه به وفهمه عنه.

فالكائنات والموجودات -بما فيها الإنسان- حروف خاوية حائرة تجوب كتاب العالم، فلا تقرُّ أو تجد لها مكانًا فوق سطور هذا الكتاب الكبير ما لم تستمدّ معانيها من أسماء الله الحسنى، وما لم يمسّها مدَد من أمدادها، وينسكب فيها مِدَادٌ من مِدَادِ بحار القُدرة.. فلا شيء موجود على الحقيقة ما لم يعطه الله شيئيّته، ويمنحه كيانه، ويقدّر وجوده. فإذا وصل الإنسان إلى هذه النقطة من الإدراك، ولاسيما بعد عظيم المعاناة، فقد وصل إلى "التوحيد" الخالص، وتشرّب جوهر الإيمان والإسلام، وعرف جدوى الوجود ومعناه.

وهذا هو ما يرمي "المثنوي" ويهدف إلى تحقيقه في نفس صاحبه أولاً، وفي نفس كل قارئ من بعده.

* * *

والتوحيد الخالص من شوائب الشكّ، والذي يشكل لبَّ الإيمان، وجوهر عقيدة الإسلام، هو في "المثنوي" ليس أمرًا تقريريًّا، ولا معنًى

تلقينيًّا، ولا عقيدة تقليديّة، ولا كلامًا محفوظًا مردّدًا يردده المسلم بلسان جاف، وقلب بارد، ووعْي ذاهل، كما هو مشاهد اليوم لدى الكثير من المسلمين.. فلا غرو إذا ما عجزت "كلمة التوحيد" اليوم -وقد خالطها هذا القصور المعيب- أن تخرق أبواب الروح، وتلج إلى أعماق الفؤاد، لتطلق قوى المسلم، وتفجّر طاقات كيانه الروحي الذي أصابه الضمور وغدا عاجزًا عن ممارسة أي نشاط يمكن أن يزيد في نموّه، ويقوّي فيه بصيرة الكشف الذكي عن "علوم التوحيد" العظيمة في مظانها الأصلية من نفس الكون والإنسان.

فالتوحيد الذي يدعونا إليه "المثنوي" ليس تقريريًّا، ولا تلقينيًّا، ولا تقليديًّا، ولا ترديديًّا، بل استكشافيًّا.. فيه ما في الاستكشاف من متعة ومغامرة ومعاناة، فهو يأخذنا -عبر خواطره- في جولة استكشافيّة في أغوار النفس الإنسانية، ويدور بنا في أنسجة الروح والفكر والضمير، ثم يزيح التراب عن ذاكرة الكون الموؤودة تحت ركام علوم العصر، ويستنطقها لتحدّثنا عن بصمات "التوحيد"، وتدلّنا على آيات الإله الواحد الذي لا يقبل الشريك.. ولا يتركنا إلا ونحن قد اكتشفنا "التوحيد" والْتقيناه في أشدّ الأشياء الكونية والنفسية بداهةً، فينبثق في صميم أفئدتنا انْبثاقًا، وينغرس بشكل عفوي في أعماق أرواحنا وضمائرنا، فيهزّ هذا التوحيد الاستكشافي أعماق النفس، ويفعم الذهن بطاقات الذكاء، ويشدُّ في الوجدان أجهزة التلقي عن الكون والحياة، فيستمرّ المسلم كشافًا رائدًا لأعمق الحقائق -في الكون والإنسان- في ديمومة لا تتوقف حتى تتوقف حياته.. فيزيد فهمًا، ويتسع وعْيًا ويخصب وجودًا وحياةً.

والإيمان بالله واحدًا أحدًا فردًا صمدًا هو أحد المحاور الثلاثة -بعد

النفس والطبيعة- الذي يدور حوله النورسي في أفكاره وخواطره المسجّلة على صفحات "المثنوي". وهو يرى أن العقل المسلم ينبغي أن يكون قرآني التصور لمفاهيم التوحيد، ولصفات الكمال والجلال والجمال التي يتّصف بها الله سبحانه وتعالى. وأن هذا "العقل" الذي تشكل المفاهيم القرآنية تصوراته عن الألوهية والربوبية، لا يمكن أن يرقى إلى قمّته عقلٌ -كائنًا ما كان- ما دام محجوبًا عن القرآن.

والنورسي -وإن لم يكن قد استعرض تصوّرات العقْليّين للألوهية والربوبية، وتصوّرات غيرهم من أصحاب الأديان والمذاهب والنحَل- إلاّ أننا نحسُّ من خلال كلامه عن أسماء الله تعالى وصفاته، وكأنه يردّ -ضمنًا- على هذه التصورات المنحرفة، ويفنّدها الواحدة تلو الأخرى.

ففي كلامه -كما سيلمس القارئ بنفسه- ردّ ضمْني على مَنْ يزعم -من العقليين- بأن الله تعالى خلق العالم وفرغ من خلقه، ولا شأن له به بعد ذلك.. وردٌّ على مَنْ يدّعي عدم علم الله بالجزئيات -تعالى عن هذا علوًّا كبيرًا-.. وردّ على مَنْ يؤمن بالله ولكنه يتردد ويتلجلج في إيمانه بالملائكة والكتب والرسل والقدَر، واليوم الآخر، والنشر والحشر، والجنة والنار.. إلى آخر تلك التصورات السقيمة المجانبة للحق، والمجافية لما أثبته القرآن وجاءت به السنّة المطهّرة.

إنَّ الآية القرآنية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(الشُّورَى:١١) قد أوفَتْ وكفتْ وردّت على تصوّرات العقول البشرية -بقصورها ومحدوديتها- لله سبحانه وتعالى، وأزرت بقياساتها الفاسدة ابتداءً من تصورات أدنى الوثنيين عقولاً، ومرورًا بأكبر عقل من عقول فلاسفة الإغريق، وانتهاءً بآخر ما وصل إليه العقل الرياضي والعلمي الحديث..

والآية -بحد ذاتها- إشارة إلى أن المسألة أجلّ وأعظم من أن تترك للأمزجة والخيالات والعقول القاصرة لكي تخوض فيها وترى فيها رأْيها من غير هدًى يهديها من الله الذي هو أعلم بنفسه، وأعلم بخلقه، وقدرات عقولهم عن الفهم عنه، وإدراك ما هوفي مكنتهم من معاني أسمائه وصفاته.

* * *

والنورسي يرى في "الأسماء والصفات" حلاًّ للغْز العالم، وجوابًا على أسئلة كثيرة ربما كان أهمّها وأعظمها على الأطلاق هو السؤال الذي حار فيه أكبر العقول من فلاسفة هذا العصر وفلاسفة كل العصور السابقة، وهو: "لماذا مُنِحْنَا منحة الخلق، وأُعطينا فرصة الوجود؟ وهذا العالم ما حكمة وجوده، وما مغزى انبعاثه عن العدم؟" إلى آخر هذه الأسئلة التي ما زالت مثار اهتمام العقول الحائرة من بني البشر.

والنورسي في خواطره عن صفات الله الجمالية يلتقي الحل، ويقع على الأجابات المقنعة، فهو يرى أن الرسّام حين يرسم أجمل لوحاته -ولا مشاحة في المثال- إنما يعبّر عن فيض الجمال الذي يغمر نفسه، وهو يفعل ذلك ليرى جمال نفسه في لوحاته وليُرِيَ هذا الجمال للآخرين ممّنْ يملكون القدرة على تذوّقه وفهمه والتأثّر به.. فكم يكون موقفنا سخيفًا وغير منطقي لو توجّهنا بالسؤال لهذا الفنّان قائلين: "ماذا تفعل؟ وما الذي يحْملك على مسك فرشاتك لترسم هذه اللوحة؟ وما سرّ ذلك؟ وما حكمته؟"... أليس التوجه بمثل هذا السؤال عبثًا لا معنى له؟! ألا يدل على قصور عقولنا، وسذاجة أفهامنا؟!.

فكذلك -ولله المثل الأعلى- فإن الصفات الجمالية والكمالية وصفات القدرة التي يدور غالب أفكار "المثنوي" وخواطره حولها، هذه الصفات

التي وصف الله -جلّ شأنه- بها نفسه ومنها: "الخالق، الباريء، المصور، الرحمن، الرحيم، اللطيف، الودود، الرزّاق، الكريم، القادر، العليم.." إلى آخر هذه الصفات، لا بد لها من التجلي بمعانيها الجمالية والكمالية في الخلق والإيجاد، وأن ترتسم صورتها في مرآة العالم والوجود، وتنسكب بمحاسنها وألْوانها على صور الكائنات والموجودات، ليراها مَنْ وصف نفسه بـ: ﴿أَحْسَن الْخَالِقِين﴾، وليريها للإنسان في خفايا نفسه، وفيما يحيط به من موجودات. فيرى -هذا الإنسان- ويتأمل ويعتبر، ويشهد ويشغف، ويعجب ويشدَه، ثم لا يقف عند هذا، بل يمر سريعًا من الرسم إلى الرّسّام، ومن النقش إلى النّقّاش، ومن الظل إلى الأصل، وبذلك -أي بهذا الانتقال السريع- يصبح الإنسان جديرًا بالفهم عن الله سبحانه وتعالى، الذي قدّر أن يكون محطّ عنايته، وخليفته في أرضه.. وهي بلا شك ستبلغ -أي هذه الصفات الجمالية والكمالية- مداها الأعظم والأشمل والأوفى من الجمال والكمال في حياة الإنسان الأخرى، وعمره الثاني في كنف الرحمن وفي جنّته التي هي أروع لوحاته جمالاً وحسنًا وكمالاً وقدرة.

وكما أنّ اللوحة الفنّية العظيمة لرسّام عبقري، لا يقدر على تذوق محاسنها، وترشف روح الجمال فيها، إلاّ مَنْ كان له إلْمام ببعض قواعد الرسم، ممّن رهُف حسُّه، ورقّ شعوره، وملك نفسًا نقيةً صافية، وقلبًا سريع الحساسية بلمحات الحسن والجمال، فكذلك فإن "الجنة" -ولا مشاحة في المثال مرة أخرى- هذه اللوحة المعجزة والتي رسمتها يد القدرة بألوان اللطف والرحمة الإلهيين، لا بُدّ وألاّ يزاح عنها الستار إلاّ لمَنْ يمتلك رصيدًا جماليًا في روحه وبدنه، واستعدادًا ذوقيًا يهيء له سبل

الاستمتاع بهذا الجمال الذي لا عين رأتْ مثله، ولا أذن سمعتْ وصفه، ولا خطَر على قلْب بشر، كما جاء وصفه -بهذا المعنى- في الحديث الشريف.

ولذا فقد كرّس النورسي جملةً عظيمة من خواطره في "المثنوي" لتشويق الإنسان، وترغيبه بالجنة، ولفت نظر النفس إلى محاسنها، وتمهيد سبل معرفتها، والوصول إليها، وذلك بتهيئة أحاسيسه الذوقية والجمالية وإرهافها -وهو بعد في الدنيا- وتنقية حواس الروح والبدن من الشوائب والأكدار، وتطهير الضمير والوجدان من قبح الرذائل والآثام، وبهذا تجمل "النفس" فيشتاق جمالها إلى جمال الجنة فيتناغمان ويتجاذبان ثم إذا قضي الأجل يلتقيان، فيندغمان ويتذاوبان في حرارة الاشتياق وبهْجة اللقاء.

والآخرة بأحداثها وأهوالها، ونشرها وحشرها وجنّتها ونارها، ليست -عند النورسي- قضيّة هامشية تحتل هامش ذهنه، وفضول وقته، وبقايا همّه -كما هي اليوم لدى الغالبية العظمى من الناس- وإنما هي شهود دائم، وحضور قائم، ووجود شاخص، لا يبرح فكره، ولا يغادر وجدانه، يراها بنظر بصيرته كما يرى الأشياء بنظر عينه، وتتحسّسه روحه كما يتحسس كل مشهود ومعلوم، وينفعل كيانه بها انْفعال مَنْ يَبْدَهُه الشيء العظيم والخطير، فيستهوِله ويتعظّمه، ويخافه ويرجوه، ويرغب به، ويرهب منه.. فما دام الذي بين الإنسان وبين أن تقوم قيامته، وتحلّ آخرته، هو أن يأتي زمن موته، وهو زمن مجهول قدرُهُ، محجوب سرّ قدومه، مكتوم وقت نزوله، ولكنه آت لا ريب فيه.. لذا فالآخرة -بهذا الاعتبار- هي غائبة حاضرة، بعيدة قريبة، مجهولة معلومة، مستورة مكشوفة.. هكذا يتحدث عنها النورسي -مستعينًا بما يرمز إليها من شؤون الدنيا- ويصف

قيامتها وحشْرها ونارها وجنّتها وْصف مَنْ يراها ويسمعها، ويغشاهُ وقتها وزمانها..

وما لم يكن الشلل الروحي قد استفحل دبيبه في كيان المرء، وما لم يكن قد سرى خدَره المتيبّسَ إلى أمداء عميقة وسحيقة فيه، بحيث لم يعد يجدي فيه أي علاج؛ فأغلب الظن أن "المثنوي" قادر بإذن الله -بما تفيض به كلماته من بداهة الصدق المقنع- على تحرير هذا المرء من أصفاد شلله، وقادر على إجراء ذلك التمسيد المنشط للذرات الباردة المتيبّسة في وجدان هذا المرء، وبعث الدفء والحركة والإحساس بالعافية في كيانه كله، فلا يلبث أن يندفع -في فورة عافيته- مخترقًا شغاف الأوهام بسنى النور الذي أشرقت شمسُه في فؤاده، ومبدّدًا دياجي الأباطيل ببوارق الحق الذي سطع ضوءُه في آفاق عقله.

وتجربة النورسي في مثنويه تعلّمنا بأن "الحقيقة الدينية" -كأية حقيقة وجودية أخرى بل أكثرها علوًّا وشرَفًا- لا يمكن أن تفصح عن نفسها، وتكشف عن سرها إلاّ إذا بحث عنها وجهد في استكشافها الكيان البشري برمّته، أي: بنزاهة الفكر، وإخلاص الضمير، وطهارة الروح والبدن.. لأن كل هذه الجوانب -التي منها يتكون الكيان البشري ويستقيم أمره- لها مجساتها الخاصة التي بها تجس جانبًا من جوانب الحقيقة، وتتلمسها متلذذةً بهذا التلمس والتحسس. وبمجموع هذه المجسات المتساندة والمتعاونة في الكيان البشري، وبالجوارح جميعًا -المادية والمعنوية- يمكن الإحاطة بالحقيقة الدينية والتقاطها وجعلها تسفر عن نفسها كأنصع وأجمل ما تكون، لتنال كل جارحة منها حظّها، وتترشف منها ما يلائم مزاجها، ويرضي حاسة ذوقها.. ولعلّ في إسراء الرسول ﷺ وفي معراجه

إلى الملكوت الأعلى بكيانه البشري كلّه -لا بجزء من هذا الكيان- إيماء إلى أن المعارف الدينية والتعبّدية لا يمكن للمرء أن يستكمل جميع ما يتقطر منها من حلاوة ولذّة إلا باستخدام جميع أحاسيس كيانه الروحية منها والمادية. فكما أن آلام هذا الكيان ليست واحدة، فألَم العين ليس كألم الأذن، وألَم الأذن غير ألم الضرس، وأوجاع النفس غير أوجاع البدن، فكذلك فإن مباهج هذا الكيان وأفراحه وأذواقه ليست واحدة على التحقيق.

فالصلاة مثلاً -وهي معراج المسلم خمس أوقات في اليوم- تصبح -في الأداء الأمثل- موضع مذاقات الذات البشرية بأسْرها فكرًا وروحًا وبدَنًا، ومن هنا جاء قوله ﷺ: «يا بلال، أقم الصلاة، أرِحْنَا بها»[١٠٢]. وقسْ على هذا جميع العبادات والمعارف الإيمانية الأخرى التي استعرضها النورسي في كتابه هذا، مبيّنًا ضرورتها للإنسان كضرورة الماء والهواء، بل أعظم منهما ضرورة، فهو -أي النورسي- لشدّة احترامه للإنسان فإنه يحاور -في مثنويه- الكيان الإنساني بأسره وبجميع لطائفه أسوةً بمنهج القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهّرة، وهو يقرر بأن أية معرفة إيمانية لا يكون من همها إشباع لطائف الإنسان جميعًا، تبقى ناقصة ومبتورة أمام المعرفة الجامعة الكاملة المستقاة من القرآن الكريم مباشرةً من قبل مَنْ هم ورثة الأنبياء حقًّا وصدقًا.

وحتى "القدر" الذي يقدّر مقادير الخلق، ويعين وظائف الموجودات، ويرسم لكل كائن في هذا العالم المدى الذي يمضي إليه، والبعد الذي

---

[١٠٢] رواه ابو داود عن سالم ابن ابي الجعد، قال: قال رجل ليْتني صلّيتُ فاسترحتُ فكأنهم عابوا ذلك عليه، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا بلال اقم الصلاة ارحنا بها». ولأبي داود رواية أخرى مشابهة عن محمد الحنفية (كشف الخفاء، العجلوني، ١/ ١٠٨ باختصار).

يصل عنده ويؤشر له نقطة البداية التي ينطلق منها، ونقطة النهاية التي يقف عندها، ثم يربط الموجودات بعضها ببعض، ويسنّ لها سنن التعاون والتساند فيما بينها، فما يبدو -للوهلة الأولى- وكأنه صراع من أجل البقاء بين بعض أنواعها، هو في النظرة العميقة الشاملة وفي المحصلة النهائية، وما يفضي إليه هذا الصراع من غايات ومقاصد، يصب في تيار التعاون والتساند ويثري الحياة، ويسهم في دفعها نحو الهدف الذي يريده منها خالق الحياة.

أقول: إن القدر، بهذا المفهوم الذي يطرحه النورسي في جملة من خواطره في "المثنوي"، وإن كان فوقيًّا وغيبيًّا إلاّ أنه لا ينزل بالإنسان هكذا فجأة وعلى غير انتظار، ولا يلطم أحدًا إلاّ تأديبًا له وتعليمًا، أو تنبيهًا وتذكيرًا، ولا يُرَبّتُ على ظهر أحد غير جدير برحمته، وبلمسات لطفه وودّه.. وهو ليس من همه أبدًا أن يقف في طريق الإنسان، ويدخل معه في صراع فلا يفلته حتى يصرعه.. فلو استعرض كلّ منّا شريط حياته لشعر وكأنّ ما وقع له من أحداث أو أقدار -في سني عمره كله- لم تقع اعتباطًا، ولم تحدث لغير ما مغزى ويتيقّن بأنّ كل شيء حدث له وكأنه كان ينبغي أن يحدث على الشكل الذي حدث به وبالطريقة عينها التي حدث بها، وأنه النتيجة المتوقعة لسلسلة من المقدمات التي سبقته فلا تقبل نتيجة سواها.. فالأحداث أو الأقدار -تأنيسًا لبني البشر- لا تأتي مغايرة لمن تقع لهم، بل تأتي شبيهة بهم وبأعمالهم، وبما ينطوي عليه كيانهم البشري من أصول البطولة أو الخسة، ومن جذور النقاء أو الدنس. وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾(الإسْرَاء:٨٤) فعلى شاكلة هذه الأعمال، وبسببها وعلى قدْرِها يقع القدر، وينفذ القضاء.

أدب الإيمان

باستثناء بعض التجارب الأدبية وبعض الدراسات النقدية، فإنَّ ساحة العالم الإسلامي والعربي خاصة ما زالت تفتقر -في هذا الزمان- إلى الأعمال التي يمكن تبلْورها في مدرسة أدبية رصينة، تتبنى الإيمان، وتنطلق منه، وترسي قواعدها على أصوله وحقائقه، ويكون لها روّاد مرموقون يمثّلونها في نتاجاتهم الأدبية. ولا جدال في أن الفكر الإسلامي كان قد شهد خلال هذا القرن الأخير المزيد من التطور والتجديد. إلاّ أن "أدب الإيمان" عجز عن اللحاق به ومواكبته، فتأخر عنه بمسافة طويلة، الأمر الذي قلّما يحدث في مذاهب الفكر الأخرى، فهي ما تكاد تظهر إلى الوجود حتى تنبثق عنها مدارسها الأدبية التي تدعمها وتدعو إليها، وتبشر بها.

ومهما قيل في أسباب ذلك، إلاّ أن السبب الرئيس هو غياب الروح اللّماح، وانْطماره تحت ركامات قرون الانحطاط والتخلف، وعجز الحاسة الوجدانية عن إدراك جمالية هذا الفكر واستذواقه والتأثر به، ثم التعبير عنه بشفافية أدبية تهز الوجدان وتحرك المشاعر.

وقلةٌ أولئك الرواد الذين يتوحد فيهم العقل والوجدان، فيفكرون بقلوبهم، ويعقلون بأرواحهم.. ومن هؤلاء القليلين أستاذنا النورسي، حيث تتوحد فيه منابع الفكر ومنابع الوجدان، فتلتقي في قرارة نفسه المنابع جميعًا مكونةً رافدًا عظيمًا يستقى منه الفكر مرة، والوجدان مرةً أخرى.

فوجدانياته تواكب أفكاره، وروحه يلازم عقله، فلا ينفكّان أو يفترقان،

وهو يرسي بكتاباته قواعد مدرسة أدبية إيمانية يمكن اعتمادها من قبل أدباء الإيمان فيما ينشئون من نثر أو ينظمون من شعر. وهو يفهم النفس الإنسانية، ويدرك أفكار القلب البشري لأنه وقف على مشارفه طويلاً. ويرى أن حنين هذا القلب إلى الخلود والبقاء قد يفجر أدبًا من أروع ما عرفته البشرية من آداب الشوق والحنين والأسى الملتاع، وفي قطعته النثرية: ﴿لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾(الأنعام:٧٦)[١٠٣] منحًى من هذه المناحي الذي يمكن النسج على منواله وطريقته.

وكما يتوحد الفكر والوجدان عند النورسي تتوحد في ذهنه ووجدانه المعارف الإلهية. فالمعارف الكونية عنده هي معارف إلهية في الحقيقة والواقع، تكشف لنا بالاستبطان والاستقراء أسرار الخلق وعظمة التكوين والإيجاد.

كما أنه يرى الكون -بجزئياته وكلياته- وحدةً واحدةً، يحكمها قانون إلهي واحد، هو قانون "التعاون والتساند"، لا قانون "الصراع والجدال" كما يذهب إلى ذلك بعض فلاسفة هذا الزمان.. لذا فالكون صديق حبيب للإنسان، يبادله المحبة والودّ، فلا يحس بالغربة فيه، أو يجد ما يبرر الاستيحاش منه؛ فالربط بين قلب الإنسان وقلب الكون هو ما يسعى إليه النورسي في مدرسته الأدبية.

وصرامة النواميس الكونية وثباتها لا يعني أن خرقها وكسر قيودها أمرٌ مستحيل، فقد خرقها الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- ليثبتوا للناس أن ليس لهذه النواميس ثبات الألوهية وهيمنة الربوبية التي لا تقهر،

---

[١٠٣] انظر: الكلمات، سعيد النورسي، ص:٢٤٣.

وأنها ليست خالقةً بل مخلوقة، وليست مُوجِدةً بل مُوجَدَة، وأنها بيد خالقها يقلّبها كيف يشاء، ومتى يشاء، وبأيدي من يشاء من عباده.. وبذلك يصبح للمعجزة وظيفة جديدة أخرى إلى جانب وظائفها المعروفة، وهذه الوظيفة إذا ما تناولها قلَم أديب مبدع فإنه قادر أن يستولدها أدبًا إيمانيًّا غاية في الجمال، كما فعل النورسي في قطعته النثرية "اليد الشريفة" التي يصف فيها معجزة يد النبي ﷺ وهي تحصب الأعداء تارةً، وتارة ينبع الماء السلسبيل من بين أصابع كفّها ليسقي الصحاب، وأخرى هي بلسم لجراح أصحابه في معارك الجهاد.[١٠٤]

ويرى النورسي أن الانتصار للحق لا محال، والعلو له لا جدال، وأن القوة التي يمجدها ويسبّح بحمدها الغربيون ليست مطلقة، لأن كل شيء يحمل نقيضه، فالقوة تحمل جرثومة ضعفها، وسيصيبها الضعف والوهن في زمن ما، كما أن الضعف ليس أبديًّا فهو يحمل نواة قوّته، وسيقوى ويشتد ساعده في زمن ما أيضًا، فلا ينبغي للأقوياء أن يفرحوا بقوّتهم ويتطاولوا بها على الناس، ولا للضعفاء أن ييأسوا وينكفئوا ويفقدوا أمَلهم بأن يصبحوا من الأقوياء في دورة من دورات الزمن.. والحق سيعلو وتكون له الغلبة إذا أطاع الشريعة التكوينية والتزم بقوانينها ونواميسها، لأن طاعة الشريعة التكوينية والالتزام بقوانينها ونواميسها هي سبيل الحق إلى القوة التي يفتقر إليها، والتي ستعينه على العلو والغلبة في ساحة صراعه مع الباطل، فباطل مسلح بالقوة يغلب حقًّا أعزل منها.[١٠٥]

والتاريخ تتجاذبه قوتان تعملان على تحريكه وهما "المطلق" من جهة

---

[١٠٤] انظر: المكتوبات، سعيد النورسي، ص:١٨٧

[١٠٥] انظر: الكلمات، سعيد النورسي، ص:٨٧١ "الحق يعلو"

و"النسبي" من جهة أخرى. ومن ورائهما القدر الإلهي الذي يحيط بالنسبي والمطلق ويرسم لهما دائرة صراعهما مع مجريات الأحداث والوقائع، وقيام الدول والحضارات أو سقوطهما.. فهذا الفهم الروحي للتأريخ يعين الأديب الذكي على رصد واقعة تاريخية معينة وتحويلها إلى عمل أدبي يفعل في النفوس ما لم تفعله الواقعة نفسها أو فكرتها المجردة.

غير أنه لا يلزم من كون القدر يسهم بشكل أو بآخر في صنع التاريخ الاعتقاد بجبرية تاريخية لا حرية ولا اختيار للإنسان إلى جانبها، فهذا فهْم سطحي للقدَر يجانب الحقيقة.. فطالب الحقيقة ينبغي أن يصغي إلى النورسي وهو يخاطبه قائلاً:

"يا طالب الحقيقة!

إن الشريعة تنظر إلى الماضي وإلى المصيبة غير نظرتها إلى المستقبل وإلى المعصية..

إذ تنظر إلى الماضي وإلى المصائب بنظر القدر الإلهي، فالقول هنا قول الجبرية..

أما المستقبل والمعاصي فتنظر إليهما بنظر التكليف الإلهي، فالقول هنا قول المعتزلة..

وهكذا تتصالح الجبرية والمعتزلة...

ففي هذه المذاهب الباطلة تندرج حبّة من حقيقة لها محلّها الخاص بها، وينشأ الباطل من تعميمها"[١٠٦].

فلكي لا يأسى الإنسان على ما فاته، ولا يتألّم للمآسي التي حلّتْ به

[١٠٦] الكلمات، سعيد النورسي، ص:٨٥٢.

في ماضي حياته، يلجأ إلى بلْسم القدَر ليغسل نفسه من همومها وآلامها.. ولكن حين يتلبس الحاضر، ويرنو إلى المستقبل، عليه أن يشحذ همّة التكليف وحرّية الاختيار، لكي لا يبرر أخطاءه وآثامه وينسبها إلى القدر ظلمًا واعتسافًا، لأن المسؤولية هي إكسير حياة الإنسان الذاتية، ومن دونها يفقد ذاتيته، ويفقد المعنى من وجوده.

فهذا الفهم للقدر يعين المسرحي المسلم، ويرسم له صورة الحياة المسرحية التي يمكن لشخوص مسرحه أن يتحركوا في إطارها، ويمارسوا حياتهم التي يتقاسمها "الماضي" بذكرياته وتأثيراته ومكوناته النفسية، و"الحاضر" بآلامه وآماله، و"المستقبل" بأحلامه وبريق أيامه... وكذلك الروائي المسلم سيفيد من هذا الفهم للقدر، لأن المسرحي والروائي، كليهما يعالجان مسألة القدر من خلال شخوصهما وأبطالهما.

ثم إنّ "أدب الإيمان" الذي وضع النورسي أسسه وخطوطه العريضة في رسالة "اللوامع"[١٠٧]، يهتمّ بالمعاني الإنسانية العالية، ويرصد قمم السمو التي بإمكان الإنسان الارتفاع إليها. ويغري بالبطولة النفسية التي تتعالى على صغائر النفس وشهواتها الهابطة، ويرفض ركوعها أمام سلطان المال والقوة والجاه، ويربأ هذا الأدب بنفسه عن الهبوط إلى حيث أكاذيب الطبيعة، فلا يدنس نفسه بهما كما يفعل أدب الغرب اليوم الذي لا يتنزه عن الخوض في أي مستنقع يَغْرَقُ الإنسان فيه مهما كانت درجة قذارته وعفونته.

وكذلك فإن أدب الإيمان الذي يدعو إليه النورسي ينبغي له أن يحل

---

[١٠٧] المنشورة ملحقة بمجموعة "الكلمات".

عقدة الخوف والضعف المستعصية في "لا شعور" الإنسان المسلم. هذه العقدة التي كونتها في "لا شعوره" عشرات السنين من التسلط والقهر الأجنبي التي عانت منه شعوب الإسلام على طول عالمها وعرضه.. فهو أدب القوة النفسية الذي يرتب التكوين النفسي للمسلم من جديد، فيغسل ضعفه وخوفه ويحذره من أن الضعف والخوف لا يثيران في نفوس الآخرين عاطفة الرحمة والإشفاق، بل يحركان فيهم عرق الكبرياء والتفوق، ويحفزان فيهم شهية الانقضاض والافتراس.. فيقول في إحدى فقرات تلك الرسالة:

"أيها الخائف الضعيف! إن خوفك وضعفك يذهبان سدًى، لا طائل وراءهما، بل يكونان عليك لا لك، لأنهما يشجعان الآخرين، ويثيران شهيّتهم لافتراسك"[١٠٨].

إنه هنا يسجل واحدًا من أقسى قوانين الغاب البشري ضراوة حين تغيب عنه إنسانية الإيمان، وتتحكم فيه وحشية الحيوان.

ورغم ما يحيق بالمسلمين وبشعوب كثيرة أخرى من ضعف وهوان إلاَّ أنه متفائل لا يعرف اليأس، ويريد من "أدب الإيمان" أن يبث الأمل في النفوس، ويشعل في الضمائر والأرواح لهب القوة والعزة والتطلع إلى المستقبل بروح الثقة من أنه سيكون من نصيب الإسلام.

وهو يرى أن "آسيا" هذه القارّة الواهنة الضعيفة المكبّلة، ستنهض منتفضة على نداء الإسلام، وستكسر قيودها، وتحطّم أغلالها، ثم تستسلم -كما يقول- بأرضها وسمائها وناسها للإسلام، وأن يدي الإسلام

---

[١٠٨] الكلمات، سعيد النورسي، ص:٨٣٧.

الحانيتين الكريمتين ستحتضناها، وأن يمينه سيعطيها الإيمان، ويمنح الطمأنينة والسلام للأنام.[١٠٩]

وبعد هذا الذي عرضناه يصبح من أوجب واجبات "أدب الإيمان" -إلى جانب بثه روح التفاؤل والأمل في الشعوب- أن يتصدى بقوة للأخطار التي تثير القلاقل والاضطرابات، وتهدد أمن المجتمعات وسلامها، وتنذرها بالهلاك والدمار.

فما لم يُرْفَعْ عن الشعوب الظلم الاقتصادي الناجم عن انحرافاتها عن عدالة الإسلام، فلا أمل لها في عيش الطمأنينة والسلام، ويجمل النورسي بأسطر قليلة أصل العلة وأساسها، ويترك المجال لمن يأتي بعده لكي يفصل المجمل، ويبني عليه، ثم يشرع في التصدي والمعالجة، يقول النورسي:

"إن معدن جميع الاضطرابات والقلاقل والفساد وأصلها، وأن محرك جميع أنواع السيئات، والأخلاق الدنيئة ومنبعها، كلمتان اثنتان أو جملتان فقط:

الكلمة الأولى: إذا شبعتُ أنا، فلا أبالي إن مات غيري من الجوع.

الكلمة الثانية: تحمّلْ أنت المشاقّ لأجل راحتي.. اعْملْ أنت لآكل أنا.. لك المشقة وعليَّ الأكل.

والدواء الشافي الذي يستأصل شأفة السم القاتل في الكلمة الأولى هو الزكاة، التي هي ركن من أركان الإسلام.

---

[١٠٩] انظر: الكلمات، سعيد النورسي، ص:٨٦٢.

والذي يجتث عرق شجرة الزقوم المندرجة في الكلمة الثانية هو: تحريم الربا..

فإن كانت البشرية تريد صلاحًا وحياةً كريمة فعلَيْها فرض الزكاة، ورفع الربا"[١١٠].

ويحسن أن أنبّه هنا إلى أن النورسي لا يهتم بتجميل إطار الصورة الأدبية التي ينشؤها كاهتمامه بالصورة نفسها.. فغايته الفكرة دون اللفظ، وهو لا يلقي بالاً إلى ضعف العبارة وركّة سبكها التي يودعها أفكاره، فلا يتكلف للعبارة شيئًا من التجميل والتزويق وحسن اللفظة والكلمة لتحسن في نظر القارئ، بل هو عفوي شديد العفوية، وتلقائي لا يرى في الألفاظ أكثر من كونها مَطايا الأفكار، فإذا عظُمت الفكرة وجمُلت فلا عليها أن يحملها أي لفظ وأية كلمة ما دامت قادرة على توصيل ما تحمله إلى القارئ..

فهو إذن أديب أفكار وليس أديب ألفاظ. وقد أشار إلى ذلك في مستهل "اللوامع" ليأخذ القارئ حذره فينعم النظر بعظمة الفكرة لا بجزالة العبارة، لأن الأفكار هي قصده وغايته في هذه الرسالة وفي كل رسالة من رسائله.

كما أنه ليس شاعرًا، أي لم ينظم شعرًا، غير أننا نلمس حسًّا شاعريًّا يشيع في أقواله وكلماته يفصح عن طاقة أدبية وشاعرية تنطوي عليها نفسه.

فتحتوي كل فقرة من فقرات هذه الرسالة "اللوامع" -مهما قلّت

---

[١١٠] الكلمات، سعيد النورسي، ص:٨٥١.

سطورها- على فكرة معينة، وكل فكرة بمفردها يمكن أن تلهم القارئ موضوعًا وجدانيًّا قادرًا على تحريك الأفكار والمشاعر وشحنها بخزين من الطاقات الإيمانية التي تمدّه بلوامع النور والضياء في دياجي الفتن الظلماء إذا ما اكتنفت المؤمن وأحاطت به من كل جانب، فيمضي في طريقه على بصيرة من أمره لا ينحرف يمينًا أو شمالاً عن صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم الله غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنني لم استعرض إلا بعضًا من مواضيع "اللوامع"، وتركت للقارئ الكريم الوقوف على بقية مواضيعها واكتشاف ما فيها من جواهر الأدب والحكمة بنفسه، ولاسيما تلك المقارنة الغريبة التي أنشأها النورسي بين أدب القرآن وأدب الغرب في معرض بيانه لإعجاز القرآن، وقد اضطررت أحيانًا للاستعانة ببعض مقطوعاته في رسائل أخرى كي أعطي القارئ فكرة أشمل عن أبعاد النورسي الأدبية وألوانها واختلاف موضوعاتها...

والمؤمل أن يحظى القارئ من خلال سطور الرسائل بشيء جميل ومفيد من غذاء العقل والروح...

ومن الله العون والتوفيق.

زاد الغرباء

يظل القلق الحادّ يَعْتَور "النفس الإنسانية" ويؤرق وجودها بسبب ذلك الإحساس المبهم بالوحشة، والشعور الغامض بالاغتراب في هذا العالم، وهو حِسٌّ عميق الغور في النفوس لا يسهل الخلاص منه، أو الانفكاك عنه، لأنه يشكل جانبًا مهمًّا من جوانب الوجدان البشري.

وكان أمرًا بديهيًا أن ينتقل هذا الإحساس المخيف والحزين إلى أبنائه، ويتوارثونه جيلاً عن جيل، مشكلاً واحدًا من أكثر مكونات نفوسهم عمقًا، وأشدّ جراحات أرواحهم نزفًا، حتى إن أرواحهم لتحوم هائمة وهي تنزف الألم والحزن في رحلة بحثها المضنية عن عالم أبيها المفقود، ووطنه المنشود... وقد أنهك هذا البحث نفوسهم، وأقضّ مضاجعهم، وأشحب وجودهم، وامتصّ ماء حياتهم دون جدوى، لأن الإحساس بالغربة يلازمهم ولا ينفك عنهم مهما ضج ضجيج حضاراتهم، واحتدمت آمالهم ومطامحهم، وعمرت أرضهم، وأخصبت حقولهم، وارتفعت في الفضاء مداخن معاملهم ومصانعهم، وهو سكّين حاد يظل يعمل في الروح تجريحًا وتقطيعًا ما دامت سارحة في التّيه، راتعة في صحارى الضياع، قبل الاهتداء إلى عالمها، والعودة إلى منبعها.

ولأن عالم آدم عليه السلام الأول، هو الوجود الحق الذي لا يَعْتَوِره الفناء والعدم، ولا يقبل إلاّ خالص الوجود، ومحْض الوجوب.. ولأن المعصية بسلبيتها وعدميتها هي الابنة الشرعية للعدم الأكبر، صار لزامًا أن يغادر "آدم" عليه السلام عالم البقاء والخلود، ويهبط إلى دنيا الزوال والفناء والعدم، لأن شبيه الشيء منجذب إليه كما هو معلوم... وهذا العالم يناصب الإنسان

العداء، ويغريه بالدنيا، ويزينها له، حتى إذا ما أبحر إليها أطبقت عليه بفكاكها القوية الحادّة، وأمسكت بخناقه، فلا تتركه إلاّ جثة عدميةً هامدةً، لا يقبلها الوجود، ويرفضها البقاء. ولكي يستطيع "آدم" عليه السلام -وأبناؤه من بعده- الخلاص من مخاطر هذا الوطن العدمي المخيف، كان لزامًا عليه وعلى أبنائه التشبث بحبال الإنقاذ الممدودة إليهم من عالم الوجود الحق، والتمسك بها بقوة وحزم، والصراخ في وجه كل ظلمات دنيا العدم "حسبنا الله ونعم الوكيل"، أي:

حسبنا واجب الوجود من عدميات الممكنات،

حسبنا الواحد الأحد من شتات الكثرة،

حسبنا مسبّب الأسباب إذا ما استرقتنا الأسباب،

حسبنا الله سندًا ومعينًا إذا ما تهاوى الإسناد وعزّ الصاحب والمعين،

حسبنا الله ناصرًا ومؤيدًا إذا ما تخلى عنّا النصراء والمؤيدون،

حسبنا الله في وحشتنا، وصاحبًا في غربتنا...

وبعد: حسبنا الله الموجود الموجِد خالق الموت والحياة، إذا ما جاءنا الموت وتهددنا العدم..

فالتشبث بالباقي الأزلي الأبدي، بقاء..

والتعلق بالوجود الحق، وجود..

والارتباط بالحي الذي لا يموت، حياة..[١١١]

والشعور بالاغتراب الفكري والروحي، وحتى الحسّي، رغم ما يخلفه

---

[١١١] انظر: المثنوي العربي النوري، سعيد النورسي، ص:٢٤٨-٢٤٩؛ الشعاعات، سعيد النورسي، ص:٦٨ وما بعدها.

من آلام وأحزان، إلا أنه يشكل عامل تحريك لقوى النفس، وتنشيط لخلايا الفكر والروح.

فالإبداعات الفكرية والوجدانية -في الأعم الأغلب- مدينة إلى هذا الشعور بالاغتراب عند المبدعين، وإحساسهم بأنهم غرباء في أوطانهم وأزمانهم بغربة ما يملكون من فكر أو وجدان لم تتهيأ الأوطان والأزمان بعد لقبوله، والتواصل معه، إلا أنهم يمضون في أداء رسالتهم على أمل أن يأتي ذلك الزمان الذي يفهم ويقدّر، وصدق رسول الله ﷺ حين قال "بدأ الإسلام غريبًا وسيعود كما بدأ، فطوبى للغرباء". أي أن زمانًا سيأتي يغترب فيه حملة الإسلام، وينكرهم عصرهم، وينكرهم قومهم، لأن الإسلام نفسه يعود غريبًا لا يُرحَّبُ به بينهم.

فهذه الرسالة -الشعاع الرابع-[١١٢] "زاد الغرباء"، تحمل العزاء العظيم للمسلمين المغتربين في هذا العصر، وتزجي الأنس للمستوحشين المنعزلين في جزر غربتهم، وتشيع الأمن والاطمئنان في نفوس الخائفين المرعوبين من وحش الفناء والعدم.

والنورسي رحمه الله، هذا الإنسان "الغريب" في قومه ووطنه يملي هذه الرسالة، ويشرح فيها تجربته الذاتية، وخبرته ومعاناته من أنواع كثيرة من الغربة والاغتراب، ويصف فيها الدواء لنفسه، والضماد لجراحات غربته، وهذا الدواء والضماد في هذه الرسالة في متناول كل مغترب من المسلمين يعاني من عذابات غربته، وآلام وحشته، وقلق خوفه ورعبه.

رحم الله النورسي، عاش غريبًا، ومات غريبًا، وأخصبت غربته هذه

---

[١١٢] انظر: الشعاعات، سعيد النورسي، ص:٦٨ وما بعدها.

الآثار الفكرية والوجدانية التي يتتلمذ عليها اليوم الآلاف من غرباء هذا العصر من المسلمين...